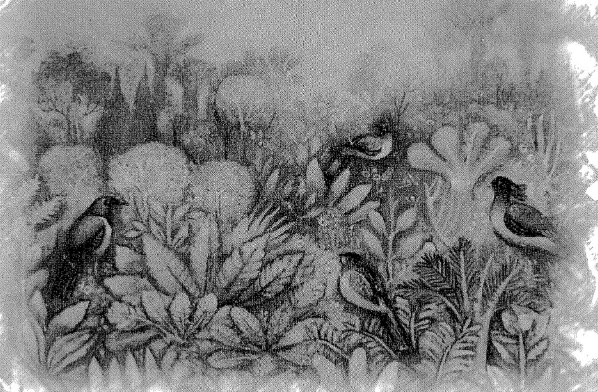
الفردوس الأعلى







تأليف
عبد الحليم شرر الهندى
ترجمة
جلال السعيد
تقديم ومراجعة
سمير عبد الحميد

281

المشروع القومى للترجمة

الفردوس الأعلى

تأليف

عبد الحليم شرر الهندى

ترجمة

جلال السعيد الحفناوى

تقديم ومراجعة

سمير عبد الحميد إبراهيم

تقديم

يمتد نسب الأديب عبد الحليم شرر مؤلف رواية الفردوس الأعلى (فردوس برين) إلى الأسرة العباسية ؛ فقد هاجر أجداده من جزيرة العرب إلى العراق ومنها إلى هراة ، ثم نزحوا إلى الهند فى عهد السلطان محمد تغلق ، واشتهرت الأسرة بمشايخها وعلمائها ، وكان «نظام الدين» الجد الأكبر لعبد الحليم شرر قد استقر فى لكهنو ؛ حيث ولد عبد الحليم شرر لأب عرف بمكانته بين العلماء ، وإجادته للعربية والفارسية ، وقد عمل والده موظفًا فى بلاد السلطان "واجد على شاه" آخر ملوك المغول فى "أوده" ، أما عبد الحليم شرر نفسه ؛ فقد ولد فى إحدى القرى التابعة للكهنو فى جمادى الثانى سنة ١٢٧٥ هجرية/يناير ١٨٦٠م ، تعلم فى صغره على يد شقيق جده لأمه وكان من أساتذة العربية والفارسية ، ثم استدعاه أبوه إلى كلكتا ؛ حيث كان يعمل هناك ، وذلك سنة ١٨٦٧م ؛ فأكمل شرر تعليمه هناك ؛ حيث حفظ القرآن الكريم ودرس الفارسية والأردية ، وأعاده أبوه إلى لكهنو سنة ١٨٧٧م ، لكنه ارتحل إلى دهلى سنة ١٨٧٩م حيث التقى ببعض العلماء ، وبدأ ترجمة كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب فكانت هذه هى الأولى لشرر فى عالم الكتابة ، ثم بدأ فى كتابة مقالات أدبية وعلمية فى الصحف أثرت فى القراء ، وترجم "الروح" لابن القيم ونشر الترجمة فى

سلسلة من المقالات بهذا العنوان ، وقد أعجب سيد أحمد خان بهذه المقالات واقتبس منها .

سافر عبد الحليم شرر إلى إنجلترا حيث أقام أكثر من سنة ونصف ، أتقن خلالها الإنجليزية كما درس اللغة الفرنسية وترجم عنها إلى الأردية ورجع سنة ١٨٩٦م ، وأصيب بمرض شديد أقعده من سنة ١٩٠٤م حتى سنة ١٩٠٧م ، وتوفى فى جمادى الثانى سنة ١٣٤٥هـ/ ديسمبر ١٩٢٦م.

ورث عبد الحليم شرر عن أجداده حب العلم والزهد واحترام الناس ، وكان متسامحًا غير متعصب ، نادى بضرورة تعليم المرأة ومشاركتها فى نشاطات المجتمع .

نال عبد الحليم شرر مكانة بين أدباء أواخر ق ١٩م وأوائل ق٢٠م ممن أفادوا الأدب الأردى عن طريق تقديم أنماط الأدب الغربى وأساليبه الفنية ، ويرجع سبب شهرته أساسا إلى رواياته التاريخية ، رغم تنوع مواهبه وتعدد مجالات كتاباته ؛ فقد نشر على الأقل خمسين رواية ومسرحية ، بعضها مترجم ، أما مقالاته فقد نشر فى ثمانية مجلدات ، ونشر شعرا حرًا لأول مرة فى الأدب الأردى ، كما عرض اتجاهات الشعر الحديث فى الأدبى الإنجليزى على أدباء الأردية ، وألف كتبًا فى السيرة والتاريخ ، وأصدر وشارك فى إصدار عدد من المجلات والصحف .

يرى بعض النقاد أن رواياته تفتقد إلى الحبكة ، ورسم الشخصيات ، إلا أن روايته "فردوس برين" أو "الفردوس الأعلى" التى ترجمها إلى العربية الدكتور جلال السعيد الحفناوى هى الرواية الوحيدة

التى يمكن القول بأنها رواية ناجحة فنيًا ، ولهذا نالت شهرة واسعة بين أبناء الأردية ، وأشاد بها جميع النقاد .

كتب شرر روايته "فردوس برين" سنة ١٨٩٩م ؛ فقدم لكتاب الرواية فى شبه القارة الهندية نموذجًا طيبا للرواية ، إذ تعد فردوس برين أو الفردوس الأعلى من ناحية الشكل الروائى من أحسن رواياته ، رغم أنها من ناحية فن كتابة الرواية التاريخية لم تحقق النجاح المطلوب .

ويذكر أنه كتب أول رواياته بسنة ١٨٨٥م بعنوان "دلجسب" ، وكتب أول رواية تاريخية له بسنة ١٨٨٨م بعنوان "ملك العزيز وفرجينيا" ثم كتب عدداً من الروايات فيما بعد منها الرواية المترجمة هنا ورواية قيس ولبنى ورواية يوسف ونجمة ورواية أيام العرب وغيرها، ورغم كثرة ماكتب من روايات إلا أن رواية فردوس برين تعد من ناحية الشكل من أنجح رواياته ، بل تعد حجر الأساس للشكل الروائى فى الأدب الأردى ، فعناصر الرواية هنا تتجمع لتعطى تأثيراً كاملاً فى القراء ؛ إذ نلاحظ أن الحبكة الروائية ، ورسم الشخصيات ، وتصوير البيئة ، والتعبير عن العواطف وفلسفة الحياة، كل هذه العناصر تتجمع لتعطى التأثير الذى يمكن أن تتصف به الرواية الدرامية ، لقد كتب شرر فردوس برين فأرسى بذلك دعائم كتابة الرواية الدرامية فى الأدب الأردى الروائى ، وهذا يعنى أنه ترسم صورة لتجارب الحياة ، وهكذا عرض شرر فى فردوس برين تجارب "حسين" بطل روايته ، مما يضفى على الرواية خصوصية درامية نلاحظها فى تجدد العمل من خلال الشخصية ، والعمل يغير من صورة الشخصيات ، وهكذا تمضى الرواية إلى نهايتها عن طريق العمل أو الفعل ورد الفعل ،

وقد حملت الرواية فى بدايتها الأسرار التى تجعل منها رواية جذابة ، وتستمر هكذا حتى تنكشف الأسرار فى نهاية الرواية ، وهذه الأسرار هى التى حملت عناصر الرواية إلى المركز ، وهذا المركز هو الذى يضم البناء الروائى ، ففى فردوس برين أسرار أساسية تبدأ بغياب "زمرد" حبيبة حسين وزوج المستقبل ، فتلف هذه الأسرار فى تلابيبها حسيناً الذى يتلقى رسائل «زمرد» من العالم الآخر فيعمل طبقا لأوامرها وينضم إلى فرقة الحشاشين الباطنية ، عندئذ تتجمع عناصر متنوعة :

قوة هذه الفرقة الجبارة ، وسائل السيطرة على المعتقدين بمبادئها ، وهى وسائل محيرة ، بعض الشخصيات العجيبة لهذه الفرقة ، المساوئ والخراب الذى أحدثته هذه الفرقة ، ارتكاب حسين لجرائمه الشنيعة بعد أن سقط فى أيدى هذه الفرقة ، الجنة المزيفة ، ثم القضاء على هذه الفرقة وانكشاف جميع الأسرار ، وهكذا تكتمل جميع العناصر التركيبية للرواية كلها بانسجام فى جو ممتع تلفه الحيرة أحيانا .

وبالإضافة إلى الحبكة الروائية نلاحظ أيضا دقة رسم الشخصيات وخاصة شخصية الشيخ على وجودى ، الذى يعد من أبرز من صورهم شرر فى روايته من شخصيات ، فقد أفاد شرر من الحوار الرائع لإبراز صورة هذه الشخصية ، التى أشاد بها جميع نقاد الأدب الأردى .

ولاشك أن هذه الرواية تعد من أفضل ماكتب شرر ، رغم أنها إذا وضعت على محك الرواية التاريخية فإن بها العديد من نقاط الضعف ، وربما يرجع السبب إلى أن عبد الحليم شرر لم يعرض الحياة الكاملة

للعهد الذى تناول فيه أسلوب عمل الفرقة الباطنية ، وهو ماتداركه فى روايته "بابك خرمى" التى كتبها سنة ١٩١٧م ، وتناول فيها جرائم الخرميين فى عصر الدولة العباسية ، تلك الجرائم التى أثرت فى نسيج الحياة الاجتماعية العامة ، وعلى العكس من هذا فهو فى فردوس برين قصر روايته على النشاط الداخلى للفرقة الباطنية دون ذكر شئ عن الأحوال والظروف السياسية لتلك الفترة ، ولاعن حكام تلك الفترة ولاعن التدابير التى اتخذت للقضاء على هذه الفتنة، فالقارئ لايدرى شيئًا عن تأثير الفرقة على حياة تلك الفترة ، وتأثيرها على الحياة الاجتماعية لذلك العهد وأسلوب ونهج الحياة العامة آنذاك وأفكار الناس المتعلقين بالفرقة الباطنية ، فكل هذا لم توضحه الرواية ، فضلاً عن أن القارئ يلاحظ بعض الأمور المتضاربة ؛ فحسين وزمرد يعتقدان تمامًا فى وجود الحور ؛ لدرجة أنهما يشاهدان بعض النسوة فيعتقدان بأنهما شاهدا "حوريات" من الجنة فيصابا بالإغماء ، وحسين يصل به الوهم إلى درجة أنه يجد خطاب زمرد فيظل يعتقد بأنه مرسل إليه من الفردوس الأعلى ، دون أن يعمل فكره مرة واحدة ، لكن حين تصدر له الأوامر من خلال الخطاب بالعودة إلى بيته يبدأ فى التفكير فيما حدث .

وعلى كل حال لم توضح الرواية أسباب غرق حسين وزمرد فيما غرقا فيه من وهم ، وعلى كل حال فالإبقاء على أسرار الفرقة الباطنية دون الكشف عنها إلى آخر الرواية نال رضا النقاد والأدباء فى شبه القارة ، ومع هذا فلايمكن القول بأن الرواية نجحت كرواية تاريخية ؛ لأن الرواية التاريخية ؛ يجب أن تقدم الشخصيات التاريخية وغير التاريخية بحيث تعبر عن جميع ظروف المجتمع فى ذلك الوقت ،

وهذا ماتفتقده رواية فردوس برين أو الفردوس الأعلى ، فهى لاتلقى الضوء على الأحوال والظروف الاجتماعية لذلك الوقت ، ولو لم يذكر شرر السنة والمكان لما عرف القارئ أن هذه الرواية تنتمى إلى زمن مضى !

ورغم هذا فقد نالت رواية "فردوس برين" إعجاب القراء فى شبه القارة الهندية الباكستانية ، وصدرت لها طبعات كثيرة طوال السنوات السبعين الماضية ، لكن الناشرين لم يهتموا بتصحيح الكتابة ، ولهذا وجدت أخطاء مطبعية كثيرة جداً ، وجاءت العبارات أحيانا غير مترابطة نتيجة عمل النساخ الذين كانوا يضيفون من عندهم أحيانًا ، مما دفع أحد علماء الأردية وهو الدكتور قمر رئيس إلى إصدار طبعة منقحة ، يكون متنها خاليا من كل خطأ ، بعد أن وازن بعض النسخ القديمة ليصدر هذه الطبعة فى فبراير سنة ١٩٨٢م وهى الطبعة التى اعتمد عليها الدكتور جلال السعيد الحفناوى فى ترجمته التى تصدر بالعربية لأول مرة .

ولاشك أن الدكتور جلال السعيد الحفناوى قد بذل جهداً كبيراً فى سبيل ترجمة هذه الرواية التى يرجع تأليفها إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ، وهو بترجمته هذه يقدم لقراء العربية وللمهتمين بالآداب الشرقية نموذجًا فريداً من نماذج الأدب الروائى الشرقى بقلم أديب متميز من أدباء الهند الكبار ، وسوف تتيح هذه الترجمة للمهتمين بالدراسات الشرقية والدراسات الأدبية المقارنة فرصة للتعرف على نماذج من الأدب الأردى الذى يرجع تاريخه إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

ولايفوتنى هنا أن أتقدم بالشكر للمجلس الأعلى للثقافة ممثلا فى شخص الأستاذ الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة على اهتمامه بنشر ترجمة هذه الأعمال الإبداعية المتميزة من الآداب الشرقية إلى اللغة العربية . وبالله التوفيق .

سمير عبد الحميد إبراهيم

الباب الأول

سـرب الحـوريات (الحـور)

نحن الآن فى عام ٦٥١هـ ، لكـن قبل ذلك بقرن ونصف قـرن كان معظم الـسياح خـاصة الحجـاج يسلكون طريقـاً غير ممهـد ووعر، مليـئا بالمخاطر والصعاب ، يبدأ من الساحل الجنوبى لبـحر الخزر (بحيرة قزوين) ثم يتوغل فى مدينة آمل مارا بمـنطقة رودبار ومازندران وهى ملاعب الجن القديمة التى ورد ذكرها فى الشاهنامه ثـم يقطع جبل طالقان شمالاً وجنوبًا ليخرج من مدينة قـزوين. ظل هذا الطريق فترة من الوقت على هذا الحال حين كانت القوافل الكبيرة تنهب وتُسرق فى وضح النهار بلا أدنى خوف، وبقـيت هناك جثث الأبرياء مـدفونة فى الجليـد منذ سنوات عديدة دلـيلاً شاهدا على الظلم والقتل والنهب.

كان فصل الشتاء قد بدأ فى تلك الأيام؛ ولم تكن طبقات جليد العام الماضى قد ذابت كليةً ، فى حين بدأت تتكون طبـقات جديدة ، ولـم يكن الصقيع قد بلغ منتهاه حـتى ذلك الحين ، بينما انتهت ملامح فصل الربيع وبهجة فصل الورود التى لم يبق منهـا سوى ورود نهاية الفصل المتناثرة هنا

وهناك، نلمح فى أماكن متفرقة البلابل (البدخشانية) التى تعشق الورود تتغنى بألحان جميلة عذبة، تقص آلاف الحكايات، لم تكن هذه المنطقة الجبلية تشبه جبال جزيرة العرب المقفرة، الجرداء ، وبشمسها المحرقة ، بل كانت فى كل أنحائها دوحة متشابكة الأشجار وارفة الظلال يتخذ منها محبو الطبيعة وطالبو الحقيقة خلوات مثالية للعزلة والوحدة. وبينما كان ذلك المكان دوحة أشجار فرشتها الطبيعة من تحتها ببسط مخملية وعشب أخضر كانت السماء خيمة زرقاء حتى إنك لو افترشتها وجلست عليها لرغبت فى التمتع بالخمر الشيرازية، وهنا نهر ديرنجان بديلاً عن نهر ركن آباد الذى قد توقف عن الجريان منذ مائة وخمسين عاما كاملة، فبعد أن يقطع (رود سفيد) يتشعب فى الممرات الجبلية المختلفة ويَصُب فى النهاية فى بحر الخزر بالقرب من مدينة خرم آباد.

كانت تلك المناظر الخلابة والطبيعة الفاتنة سببا فى ظهور الحكايات المختلفة المرتبطة بهذا الجبل، يقول بعض الناس إن الجن موجود فى تلك الممرات الجبلية، ويعتقد البعض أن كيومرث ورستم ونريمان قد قضوا بسواعدهم القوية على جماعة الجن، إلا أنه مازال هناك كثير من الحوريات تعيش فى تلك المناطق المعزولة حتى اليوم تذكرنا بجماعة الجن، وقد رأى معظم العالمين ببواطن الأمور تلك الحوريات وهى تطير،كما رأى بعض السيّاح سرب الحور المبهر يخرج فجأة من بين الشعاب الجبلية، ويروى أنه من كان وحيدا وصادف هذا السرب سقط تحت أقدام الحور ومات على الفور.

إلا أن الباطنية والملاحدة الذين يقطنون هذه المنطقة وينتشرون بها أكثر ظلمًا وبطشًا من الحور والجن، وطبقًا للأصول والعقائد القديمة فإن المسلم

الذى يقع فى أيديهم لا يمكن أن يَسْلَم بأى حال ، وخاصة فى شهور جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب ؛ حيث تكون مظالمهم على أشدها، وسبب هذا أن المسلمين فى مناطق تركستان وقرغيرستان واستراخان ينزلون فى هذه المنطقة عندما يتوجهون للحج ؛ فإنهم بعد أن يعبروا بحر الخزر بالمراكب، ثم يطوون جبل طالقان هذا حتى يصلوا إلى أرض العراق ومنها يقصدون أراضى الحجاز المقدسة، ورغم أن بطشهم اشتهر فى كل مكان هناك فقد هجر معظم الناس هذا الطريق، إلا أن بعض المسلمين ممن لا يبالون بالأمر لا زالوا يمرون به بدافع من الحماس وحسن النية ، وخاصة أهل آمل وما حولها ، فليس لهم من طريق غيره.

هذا الطريق الذى ورد ذكره يمتد إلى مسافة بعيدة جدا ، إلا أننا لن نهتم إلا بهذا الجزء من الطريق الذى يمر على ساحل نهر ديرنجان ، وينتهى هذا المكان بوادى رودبار وتبدأ المرتفعات والمنخفضات الجبلية المتعرجة والوعرة ، وإذا ما تقدمنا قليلا مضى الطريق إلى ناحية أخرى واختفى بين الشعاب الجبلية الملتوية بعد دورانه فى أحضان نهر جبل البرز.

بقى على الليل بضع ساعات ، واقتربت الشمس من القمم المكتسية بالثلوج ، وقد زال الدفء القليل الذى كان فى أشعتها الواهنة ، وهبت لفحات الهواء الباردة من أعالى المنطقة الثلجية ؛ فكانت كافية لكى تسرى القشعريرة فى الإنسان.

وفى هذا المكان ، وفى هذه الحالة ، ظهر مسافران يتهاديان رويدًا رويدًا من ناحية الشمال ، وكانا قد التفا بالملابس من رأسيهما حتى

أخمص أقدامهـما كأنهما كتلة كبيـرة من الملابس ، وكان كل منهما يمتطى حمارا صـغيرا منهك القوى ، ويبـدو من وجهيهمـا الشاحبين وحالتـهما العامة أنهـما صوفيان فقـيران من قرية ما، أو درويشان تركـا الثروة وتركا الفروسيـة وخرجا فى هذا السفر لأمر مـقدس ولهدف دينى. . لكن لا. . فعندما اقـتربا اتضح أنهما ليـس شيخين ولا صوفيين، بل هـما شابان من أبناء النبلاء ، ومن المدهش أن أحـدهما رجل والآخر امـرأة ، ويظهر من وجهيهما أنهما من أسرة عريقة ومن المستحيل ألا يكون إلا من أسرة عريقة رغم أن ذلك لا يبدو من هيئتـهما أو ملابسهما ؛ لأنهمـا كانا يتزييان بزى أشراف آمل تحت الأردية الثـقيلة التى تغطهمـا تمامًا ؛ أما الرجل فـهو فى مقتـبل شبابه، وهو شاب وسـيم يرتدى لبادة كبيـرة من الجلد على قفطان صوفى وعلى رأسه قلنسوة تركية طويلة قـديمة مصنوعة من عيدان الخيزران على شكل مخروطى ملفوفة بجلد شاة سوداء ، وعلى القلنسوة عمامة قد لفت مرات مـعدة حول رقـبته وأذنيـه من أسفل إلى أعلى ، وفى قدمـيه جورب وسروال صـوفى وقد تمنطق بحزام من الجلد ثبت فيه خنجـراً كما علق فيه سـيفًا وجعل فيه جـعبة للقوس والسهـام، كان من العادات التى يحرصون عليها قديما أن يربطوا الأسلحة ببـردعة الحمار ويضعون بها حربة يستعملها هذا الفتى الشجاع فى الصيد بالإضافة إلى زاد الطريق الضرورى لسد رمـقه هو ورفيـقة سفـره الفاتنة، كان هذا الفـتى يمتطى حمـاراً بينما امتطت الحمار الآخر فتاة جميلة فى الثامنة أو التاسعة عشرة من عمرها فى ملابس كثة رثة تخفى حسنها الأخاذ إلى حد كبير، لكن أنّى لها أن تخفى حركـاتها ودلالها، فـهذه المساحـة المكشوفة من وجـهها تنم عن حـسنها وجمالها، ومن يحظى برؤيتهـا لأول مرة يعلم أنه لن يرى مثل هذا الحسن وذاك الدلال ، ولكن جـميـلتنا ذات الحسن النـادر كانت ترتدى سـروالاً

فضفاضًا من الحرير الأصفر من أعلاه لأسفله، وتربط على ركبتها قطعة من القماش المموج المزركش ، وتلف عنقها بشال حرير أحمر ، وتغطى رأسها بخمار أزرق من قماش الحرير الأطلسى ؛ كانت كل هذه الثياب مختفية تحت جلباب صوفى ، وكان الشىء الوحيد الذى يدل على أنها امرأة هو مئات الضفائر الصغيرة التى كانت تخرج من تحت الخمار وتتبعثر من كتف إلى آخر ثم تستقر على ظهرها ، وكانت تتعثر مرارًا بسبب وعورة الطريق أو سرعة الحمار.

ومع أنه من الصعب تصوير جمال هذه الفتاة الفاتنة ، إلا أن هذه الصفات ربما ترسم صورة بسيطة لوجه جميل جذاب أمام المولعين والمتحرقين شوقًا للجمال والحب، ويكفى للمرء أن يفقد صوابه ما إن يرى تناسق أعضائها الفائق بما فى ذلك وجهها المستدير كقرص الشمس كما هو الحال عند ساكنى الجبال، وخدها المشرب بالحمرة وعيناها النجلاوان العسليتان ورموشها الطويلة المشرعة وجبهتها العريضة وشفتاها الرقيقتان بما فيهما من اعوجاج يبسط نواجزها الرقيقة الممتدة إلى ذقنها المدبب كأنه صب فى قالب صغير ونظراتها الخاطفة ، بالإضافة إلى عينين وحاجبين جريئين.

كان هذان المسافران الشابان يجيلان النظر فى كل اتجاه وهما يسيران فى صمت وقلباهما يرتعدان من الخوف بسبب صعوبات الطريق ، وبدأ الاضطراب يظهر على وجهيهما الرقيق الذى لم تنضجه التجربة بعد بسبب حلول الظلام ، ورغم هذا لم ينطقا بحرف، وفجأة تغلبت على الفاتنة عواطف لحظية آنية مفاجأة فأخذت نفسًا باردًا وسألت بصوت رقيق ساحر "أى يوم هذا؟".

الشاب : (بعد أن بدأ يحسب فى صمت) الخميس.

الفتـاة : (فى لهجة ممزوجة بالحـسرة) لقد انقـضى اليوم على تركنا لمنزلنا ثمانية أيام كاملة (وبعد سنة من التـأمل) يعلم الله ماذا سيقول الناس وكيف سيكوّنون آراءهم.

الشاب : سيقولون إننا تركنا وطننا شوقًا إلى الحج.

الفتاة : (بعد أن زفرت آهة باردة) وسيـتهموننى كذلك بأننى رحلت مع غير محرم .

الشاب : يا زمرد (اسم هذه الفـتاة) لم أعد الآن غير محـرم بالنسبة لك، سنصل إلى قزوين فى خلال بضـعة أيام ، وسنتزوج بمجرد أن نصل إلى هناك.

زمـرد : (بعد أن أخـذت نفـسًـا باردًا) يعلم الله هل سـيكتب لنا الوصول إلى هناك أم لا؟ فالطـريق معروف بمخاطره وصعـوباته، والمسافر المحظوظ هو من لا يقع فى قبضة الحور، وحـتى لو نجا فأنَّى للملاحدة(*) أن يتركـوه ؛ عندئذ طرأ على زمرد تغـير غيـر عادى ؛ فقـد ذكرها ذلك المكان بذكرى خاصة ، وأخذت تتلفت فى كل مكان وتنظر حولها فى كل اتجاه وتأوهت آهة باردة عدة مرات.

لم يفكر الشاب فى هذا الأمر قط ، ثم بدأ يقـول فى لهجة عادية : "أنا مطمئـن من جانب الملاحدة ؛ لأننى تـلقيت رسالة من "مـلا حسـبة الله" نقيبهم المشـهور فى آمل ، وسأستعمل هذه الرسالة كتـعويذة مجربة أقدمها لهم وسننجو من يد القرامطة الظالمين.

(*) الملاحدة : كان لقبًا عامًا للقرامطة ، وخاصة الباطنية (المؤلف).

كان المسـافران الشـابان يتحـدثان عن هذه الأمور عندمـا وصلا إلى الطريق الذى يبدأ منه (مـعه) الصعود على قـمة الجبل بعد أن يفـترق عن النهر ناحـية اليمين ليدخل بـين آكام الشجر والأشـواك الكثيفة والشـعاب الوعرة، فـتقدم الشاب على الطريق بـحماره ؛ فإذا بزمـرد تمسك باللجام وتقول: "لا يا حسين" (وهو اسم الشاب).

حسين : (بعد أن نظر إلى زمرد فى حيرة) إلى أين؟

زمرد : حيث يجرى النهر.

حسين : لا يوجد طريق هناك.

زمرد : أمشى.. هيا :

حسين : أنحن متوجهون إلى قزوين أم إلى مكان آخر؟

زمرد : لا ليست قزوين هدفى المنشود، بل أريد أن أعرف إلى أين يتجه هذا النهر.

حسين : لكن موطن الحور فى هذه الناحية .

زمرد : ليكن ما يكون .

حسين : لقد سمعت أن أحدًا لم يخرج حيًا من هذه الناحية.

زمرد : هذا ما أريده.

فنظر حسين إلى زمرد فى حيرة وتعـجب ، وقال بلهجة جادة: وماذا عن الرغبة فى الحج؟

زمرد : مازالت لدى الرغـبة، فبعد أن نذهب إلى قـبر أخى موسى ونقرأ عليه الفاتحة نتجه إلى مكة المكرمة.

حسين : قبر أخيك! ، لكن لا أحد يعرف مكانه؟

زمرد : أنا أعرفه ، وأعرف الطريق إليه.

حسين : (فى حيرة) أنتِ؟ أنَّى لك أن تعرفى؟

زمرد : أعرفه جيداً.

حسين : هل جئتِ هنا؟

زمرد : لا ، ولكن يعقوب الذى كان حمل إلينا خبر وفاة أخى موسى يعرفه جيداً، وأول علامة للوصول إليه هى أن يفترق النهر عن الطريق ، وبعدها يجب السير على شاطئ النهر ، وبعد أن نمشى سأخبرك بعلامات أخرى.

حسين : ماذا يعرف يعقوب، ومن يستطيع إن يقول أن أخاك أو أى شخص مات فى هذه الجبال الشاهقة المتداخلة وكيف مات وأين ومَنْ؟

زمرد : ألا إن أخى موسى ويعقوب كانا معًا ، وبعد أن وصلا إلى هذا المكان الذى يبتعد قليلاً عن شاطئ البحر هبط عليهم سرب الحور من جبال البرز ومات أخى على أيديهم ، بينما سقط يعقوب مغشيًا عليه، وعندما استرد وعيه فى اليوم الثانى وجد جثة أخى فأعد له قبراً ودفنه فيه ، وحفر اسمه على حجر بالقرب من القبر ثم رجع.

حسين : أنا أعرف أن هذا كلام لا طائل وراءه ، وفى النهاية ما السبب الذى جعل الحوريات يقتلن أخاك ويتركن يعقوب حيًا.

زمرد : السبب هو أن أخى أمسك بيد إحدى الحوريات ، بينما كان يعقوب جبانًا ؛ فلما رأى الحور سقط مغشيًا عليه.

حسين : إذن لا ينبغى الذهاب إلى مثل هذا المكان.

زمرد : بل سأذهب حتمًا.

حسين : افرضى أننا وصلنا إلى هناك وهبط أمامنا سرب الحور!

زمرد : أنا لن أخاف لا تأتِ إن كنت خائفًا.

حسين : اذهبى بمفردك فلن أذهب! أنا مستعد دائما للتضحية بروحى فى سبيل حبك.

زمرد : اسمع يا حسين، أنا لن آتى معك، كما أننى أعترف أنك رجل شهم أحببتك منذ كنا ندرس معًا فى المدرسة، لكن لا تفهم أنك قد أغريت بنتًا شريفة وأخذتها من بيتها ؛ لقد جئت معك برغبتى، لكن آمل أن أقف أمام قبر أخى وأذرف الدموع لا شىء إلا، وعندما أحقق أملى هذا سأذهب معك للحج.

حسين : يا زمرد راعى شبابك وصغر سنك وتخلى عن هذه الأمنية.

زمرد : لا.. مستحيل، لقد احتملت الإهانة من أجل تحقيق هذه الأمنية.

حسين : (بصوت يائس) يا إلهى! اقبض روحى قبلها.

زمرد : أدعو الله ألا يرينى هذا، (قالت مبتسمة) فالواحد منا يحب الآخر ، ولو متنا فسوف نموت معًا.

قالت زمرد هذا ثم اتجهت بحمارها ناحية نهر ديرنجان ، ولم تكد تمضى خطوتين حتى منعها حسين قائلاً، يا زمرد اصبرى قليلاً ولنواصل السير غدًا ، لقد حل المساء علينا فهل تريدين أن تصلى فى الليل؟

زمرد : كف عن هذا ولنواصل السير إذا سرنا فلا أمل فى وجود مكان آهل ومادمنا نمضى فى الصحراء فجميع الأماكن متشابهة.

لم يستطع حسين أن يرفض بأى شكل من الأشكال، فمضى والتردد يملأ قلبه ، ودلف مع زمرد فى شعاب جبل البرز المظلمة الحالكة ، وأخذا يسيران ببطء وتؤده ، امتلأ قلباهما بالرعب من هذا المكان الموحش الذى ساده السكون ، وكانت الغابة تزداد كثافة كلما توغلا فيها ، ويزيد الصقيع ساعة بعد ساعة ، والصمت المطبق كان يضاعف صوت خرير النهر ؛ فتزيد الرهبة من هذا المكان الموحش، صار الطريق الآن وعرا فاضطرا إلى النزول عن حماريهما، وسار كل منهما فى الأحراش وهو يتحاشى الأرض الصخرية ويمسك بزمام حماره يتبع أحدهما الآخر، وبعد فترة من الصمت قال حسين وهو يرتعد من الخوف: لا بد أن الحور يقطُنَّ فى مثل هذا المكان المرعب ؛ فهل يمكن أن يوجد هنا إنسان، إن لم يوجد حتى أثر لحيوان؟!

زمرد : نعم لو قد سمعت أن الحور يظهرن فى مواضع كثيرة من هذا النهر ، وهن يسبِّحن وشعرهن مكشوف ويتلاعبن ، ويرش بعضهن البعض بالماء.

حسين : (مضطربًا) ما هذا! أى صوت هذا؟ كأن شيئًا ما مرق سريعاً بجوار أذنى.

زمرد : من المعروف أن عرش الحور لا يُرى وهو يطير ، لكن صوت طيرانه لابد أن يُسمع.

حسين : هذا أيضًا ممكن، لكنى أظن أن ذلك كان صوت حيوان ما.

زمرد : لوكان حيوانًا أتظن أنه لا يُرى؟

حسين : مع أن الشمس لم تغرب حتى الآن ، لكن - كما تشاهدين - صارت الدنيا أكثر ظلمة من الليل ؛ ففى بعض الأوقات عندما يجن الليل يخرج البوم أو الخفافيش الكبيرة وتطير محدثة مثل هذا الصوت المرعب.

زمرد : لكن فى الحقيقة الحور أنفسهن يخرجن فى الليل على هيئة حيوانات مختلفة.

حسين : ربما - نطق بهذه الكلمة ثم أخذ يتطلع حوله بنظرات مضطربة وخائفة ، ثم قال بصوت متهدج : سيحل المساء ، ولن تستدلى على قبر أخيك فى أى مكان.

زمرد : لكننى لن يقر لى قرار حتى أصل إلى قبر أخى.

قالت هذا وهى تنظر إلى ممر مظلم يجرى فيه نهر وعلى شاطئيه صخور ملساء بارزة يصعب على الإنسان اجتيازها، وعندما رأت زمرد هذا الممر صاحت بشوق وبلا وعى، نعم انظر هذه هى ، سنمضى من هنا العلامة الثانية ؛ فالطريق من هنا يبدأ.

حسين : لكن لا أفهم كيف نسير من هنا؟

زمرد : سوف أمضى بأى شكل ضرورى..

حسين : وهذان الحماران.

زمرد : نتركهما هنا لنأخذهما حين نرجع.

نظر حسين بتعجب إلى حماس زمرد واعتدادها برأيها ثم ربط الحمارين فى شجرة وتقدم حسين وزمرد إلى الأمام والتصقا بالصخور وأمسكا بيديهما نتوءات الصخور البارزة ، واستمر هذا السفر الشاق

ساعتين حتى انتهى الممر، وبعد أن اجتازاه نظرا فى حيرة إلى حيث يصب نهر يرنجان ؛ فشاهدا فجأة مروج غاية فى البهجة والروعة. لقد كان المكان عجيبًا حيث رتبت الطبيعة الحدائق بأيديها، فأحواض الورود المتفتحة ذات الألوان المتباينة تنتشر فى مساحات شاسعة والطيور المغردة موجودة بكثرة ، ويبذل كل من سكن الروضة جهده فى سبيل حسنها وجمالها. كان الليل لا يزال يلف المكان وهؤلاء المحبون المتحمسون المتواجدون فى الروضة يودعون حبيباتهم الوداع الأخير، عندما رأت زمرد هذا المنظر فقالت فى سعادة: "الآن وصلنا إلى هدفنا المنشود، فقد مات أخى موسى فى هذا الوادى وربما يكون قبره فى أى موضع هنا" . بعد أن قالت زمرد هذا أخذت تجرى فى كل اتجاه مثل الغزالة الشاردة النشيطة الرشيقة ثم توقفت عند حجر كبير وصاحت"حسنًا هذا قبر أخى" .

بعد أن سمع حسين عبارتها تلك أسرع إلى هناك فرأى حجراً محفوراً عليه اسم موسى ، وبالقرب منه مجموعة من الأحجار رتبت موازية له على هيئة قبر فوقف عليه وقرأ الفاتحة ، إلا أن الحزن واللهفة قد تغلبت على قلب زمرد فسقطت على الأرض قبل أن تنتهى من قراءة الفاتحة، واحتضنت القبر وبدأت فى البكاء والعويل ، وأخذ حسين يواسيها ثم أحضر ماءً وغسل وجهها وجلس محتضنًا حبيبته الجميلة فى ظلام الليل الدامس وأخذ ينصحها.

زمرد (بصوت متحشرج) لا أريد أن أعيش يا حسين وأعرف أننى سأموت فى هذا المكان وقد ارتعدت فرائصى ، وكبدى يتفتت ، وقلبى سيهبط ، لكنى أوصيك قبل أن تموت أن توسد جسدى تحت تلك الأحجار بجوار رفات أخى موسى.

حسين : (فى حدة شديدة وعيناه مغرورقتان بالدموع) إذا نفّذت هذه الوصية فلن ينفذها إلا رجل آخر غيرى فلا يمكننى أن أعيش بعدك ، ومن ينفذ هذه الوصية لابد أن يقوم كذلك بتوسيد جسدى معك تحت تلك الأحجار.

زمرد : (فى ضراعة) لا يا حسين لا تفعل هذا، إنك لا تعلم ماذا يجذبنى إلى هذا المكان الآن، لن أقول إنه محبة ولا يمكننى أن أقول إن وصف يعقوب كان فيه سحر ، ولكن فى اليوم الذى سمعت فيه قصة وفاة أخى موسى، رأيت حلمًا فى اليوم التالى كأن أخى يقف فى هذا الوادى، ويشير بيده نحوى وينادينى قائلاً: تعالى إلى قبرى واقرأى الفاتحة؛ لقد نادانى أخى المرحوم بطريقة مؤثرة وصورته آنذاك مازالت ماثلة أمام عينىّ ، وهكذا يمكن أن تدرك أننى جئت إلى هنا ألبى نداء أخى.

حسين : (لم يتمالك نفسه من البكاء الغزير، فقال بحماس شديد) حسنًا لقد ناداكِ فى الحُلم فأحضرتينى معك.

زمرد : نعم لقد أحضرتك معى لهذا السبب ؛ فليس لى فى هذه الدنيا أحب منك ، وأمنيتى أن أسلم الروح أمام عينيك وبجوارك، بعدها تعود إلى البيت لتدافع عن سمعتى التى شوهت أمام أهلى وشرفاء المدينة الآخرين تخبرهم بنبأ موتى ، ولماذا مُت ؟ وأين ؟ وتؤكد لهم أننى كنت طاهرة الثوب عفيفة حتى وفاتى يا حسين ، أمنيتى أن تبقى حيًا وتطهر ثوبى من سوء السمعة.

حسين : (بعويل مفجع) لا قدر اللهِ أن أحمل خبر وفاتك.

وفجأة انبعث ضوء على سطح منحدر جبل صغير وقع نظر زمرد عليه أولاً فقالت بعد أن فزعت كيف انبعث هذا الضوء؟

نظر حسين فى حيرة إلى هذا الضوء وقال "الـله يعلم حقيقته، انظرى إنه يتزايد من هنا من أولئك الناس الذين يستطـيعون القدوم إلى هذا المكان فى هذه الليلة المظلمة؟

اضطرب المحبان بسـبب هذا الضوء ، وازدادت حيرتهما سـاعة بعد ساعة وهم يشاهدانه يقترب منهما كثيراً ، كانت هناك مشاعل كبيرة تتراوح أعدادها ما بين خمســة عشرة أو عشرين ومن تحتها سـرب كبير من النساء الجمـيلات الحـسناوات كالحـور ، وعندما رأى حـسين وزمرد هذه الحـالة صرخـا مذعوريـن وقال كلاهمـا فى صوت واحد: "الحـوريات" وأصيـبا بالإغماء ، وفقدا وعييهما تمامًا.

الباب الثانى

حبيبتى زمرد أين ذهبت؟
لوّن سجادتك بالخمر، مهما يقل لك شيخ المجوس

كان الصبح قد انبلــج والنسيم يهب بينما كانت طيور السحـر تستعد للخروج من وكناتها فأيقظ ذلك حســين من حلمـه الذى فقد فيه ؛ وعيه فتقلب منتشيًا ذات اليمـــين و ذات الشمال ثم نهــض وفرك عينيه بيده ، وأخـذ يتلفت فى كل اتجـاه ، لكنه لم يجـد أثراً لزمـرد فـى أى مكان ، أخذته الحيرة والدهشة حين لم تقع عيناه على الوجه الجـميل لحبيبته الفاتنة ، ومالت به الأرض بسبب ذهوله وضـعفه وتعثرت أقدامـه ووقع عده مرات وهو ينظر حوله ، وأخذ يجيل بنظره فـى كل مكان باحثًا عنها ، لكن لم يجد أثراً للحـبيبـة الفاتنة زمرد فى أى مكان ، وبعـد أن تعب من البحث وصل إلى قبـر موسى وجلس عنده، وأخذ يزرف دمـوع الحســـرة والألم وبـــدأ يقول: أين ذهبـــت حبيبتى زمرد؟ آه هل ابتلعتها الأرض والسماء؟ أم اصطحبتها حوريات الليل!

وقع نظره على قبر موسى بالصدفـة ؛ فاندهش بعد أن رأى القبر قد حدث فـيه بـعض التغـير ؛ إذ زيدت عليـه بعض الحجـارة التى لم تكن

موجودة حتى مساء أمس ، ولم تكن دهشته قد زالت بعد حتى وقع نظره على الحجر الذى حفر عليه اسم موسى ؛ فرأى تغيراً آخر فى الكتابة فبدأ يقرأها بتمعن ثم قال بصوت مرتفع نسبيًا "موسى وزمرد" عندها صرخ وأخذ يدور مذهولاً وقد باغتته صدمة قوية وغلبه الحزن والغم ، وبعد أن استرد وعيه قال في نفسه: وآسفاه لقد حدث ما قالته زمرد، ماتت هى وأنا حيٌ ، آه! يا لهن من حوريات ظالمة قتلنها وتركننى بين الحياة والموت، آه لقد كانت زمرد روحى ؛ فكيف أعيش بدونها، قال هذا ثم بدأ يحطم ذلك الحجر المحفور عليه اسم الأخ والأخت، وخطر على باله أن يفتح القبر ويدفن نفسه فيه ، لكنه استبعد هذه الفكرة بعد أن همست صوت ملائكة الرحمن فى أذنه كأنها تقول: "هذا الأمر يتعارض مع الشرع ويهين الموتى" ، وبعد أن استمع إلى نداء ملائكة الغيب صاح قائلاً: "آه ماذا أفعل إذن" ، قال هذا ثم سقط على الأرض وهو يتلوى، وبعد فترة من البكاء والعويل نهض وأسرع نحو قبر موسى يحتضنه ظنًا منه أنه قبر زمرد ، وأخذ يخاطبها كأنه يخاطب شخصا على قيد الحياة قائلاً: "حبيبتى زمرد الموت ليس باختيارنا وقتل النفس حرام والحياة بلا فائدة و بلا طعم ، لكن متى يحل الموت ، وإذا كان لابد منه فلماذا لا أنتظره هنا فى هذا المكان، إن قبرك سيكون مؤنسى وجليسى فى الأيام الباقية لى فى هذه الدنيا، وخيالك سيكون محبوبى الوفى، الآن سأعيش هنا وسأموت هنا، وكما استدعاك أخوك إليه فاستدعينى أنت أيضًا ، ولا يمكننى أن أنفذ وصيتك ؛ لأنى سأمكث هنا ولا يستبعد أن تمر الحوريات هنا وتوصلنى إليك بلا أدنى مشقة".

هدأ حسين بعض الشىء بعد أن حسم هذا الأمر مع نفسه ، ونهض من فوق القبر ، وذهب ناحية شاطئ النهر ورش على عينيه الدامعتين ماءً

نظيفًا طهوراً ثم توضأ ووقف فى محاذاة القبر وصلى عدة ركعات نافلة ثم جلس وأخذ يدعو لزمرد بالمغفـرة فى خشوع وسكينة ، وقرر أن يعيش فى هذا المكان طوال حياته.

لقد اختار حسين هذه الحياة بقوة بأسه ، وشعر بلذة وهو ينتظر الحور من الآخرة أو يدعو لنفسه بالموت ، ولم يعد يتـذكر موطنه ولا حتى رغبته فى الحج، وصار خيال زمـرد قبلته، وقبرها المشترك مسـجده، وكلأ الغابة قوته، وكان أحيـانًا يعيش على صيد العصافـير، وظل ينتظر رسالة الموت فى كل لحظة ، وكان إذا ما غلبه الحزن والغم يعانق قـبر محبوبته الفاتنة ، ويبكى حتى تنهر الدموع فتغسل الحزن من قلبه.

ظل على هذه الحـالة ستة أشـهر لا يبرح مكانه بـجوار قبـر موسى وزمرد ، وعاش فى تلك الجبال طوال فصل الشتـاء حين كُسى قبر شهيدى الحـسرة المظلومين برداء من الثلـج لفتـرة من الوقت، وتجشم برودة الجـو القارس وتساقط الـثلوج بصبر وشكر، وحل فصل الربيع إذ ذاك فـامتلأت بالأزاهير المروج والأودية فى كل جانب، وكان الهواء يتضوع دائمًا بالمسك والعطر والطيب فتتضاعف أمنيات القلب سـاعة بعد ساعة حتى ازداد حزن حـسين إذ ذاك حدة عن ذى قـبل ، وكلمـا رأى الربيع وهذه الورود ازداد يقينا بقدوم الحوريات، وبدأ يظهر علـيه الاضطراب ونفد صبره وهو ينتظر الحور الظالمات ، وفى أحد الأيام أخذ ينتحب ويقول " واأسفاه لقد أنجزت الحور مهمتها بالنسبة لموسى وزمرد فى يوم واحد ، أما أنا - ولسوء حظى - فقد مر على انتظاري ستة أشهر وكأنهن نسين الطريق إلى هنا ، وذات يوم نهض من نومه فى الصـباح فوجـد على غير العـادة ورقة على قبـر زمرد فجرى بشوق ودهشة والتقطها وقرأها ووقف لحظات متُسمراً لا يتحرك من

أثر المفاجـأة وأخذ ينظر مـراراً إلى الكتابة ويقـول: "إن العين لا تخطئ" لكنه كـان يزداد ثقة لحظة بعد لحـظة فى أن هذه الكتابة بخط زمـرد وكان مضـمون الرسـالة ما يلى " يا حسين أنا سعـيدة للغاية فى هـذا العالم، فالمباهج هـنا أسمى من ظنك وتخمينك وقـياسك، أنا فى تلك الجنة التى وعـد بها القـرآن وجمـيع الكتب السـماوية كل مـسلم يعرف الله، وقـد حصلت على النعيم بفضل الله وكرمه ؛ فالزهرة والمشترى الذى كنت ترى شعاعهـما من بعيد هما الآن جليسـاى وأنيساى لقد سمعت قصـتهما، لا لكنك كم هى جـذابة وفـاتنة تلك النعم فى عـالم النور ومركـز اللاهوت حتى إن قصة هاروت وماروت لا تخطر على البـال ، ولكننى هنا متحيرة من أجلك ومشتاقة للقـائك، والملائكة والأرواح السماوية الأخرى يعلمون مثلى أنك تجلس مـجاوراً لقبـرى وقد جذبتنى النـزعات المادية التى ظلت تتجه نحـو عناصر عالـم الروح لفترة من الزمن مـراراً إلى قبرى ، ورأيتك تحتـضن قبـرى وتبكى وقد وقـفت أنا نفسى أبكـى معك لساعـات، لكن للأسف لا يمكنك أن ترى صـورتى بعينيك الماديتين ولا تستـطيع أن تسمع صوت بكائى بأذنيك الدنيـويتين ، وأنت فى انتظار الموت الحق وبقاؤك فى الدنيـا الآن لأيام معـدودة، وقـد نلت سعـادة وصالـك منذ زمن بعيـد، والحديقة التى تـوجد فيها هى مـوطن الحور اللاتى لا يمكنهن المجىء هناك بسبب وجودك ولا يمكنهن أن يختطفن روحك ؛ لأن ميعاد موتك لم يحن بعـد ، وهذه هى الأسـباب الـتى بسبـبهـا لا يمكن لهن بأى طريقـة أن يخرجوك من متنزههن فاضطررن هن أنـفسهن إلى هجر موطنهن ، لكنك للأسف لم تعمل بوصيتى حتى توقف الذين ألصقوا التهمة باسمى والذين أساءوا إلى سمعتى ؛ لأن كذبهم وافتراءهم يزعجنى ، ولهذا السبب فإننى أذكّـرك بوصيـتى مـرة أخـرى ، وأقول لك بكل رجـاء أن تذهب وتنفـذ وصيتى.. المتيمة بك والبعيدة عنك..زمرد" .

قرأ حسين هذه الرسالة آلاف المرات ، وأخذ يحملق فيها بعينيه ويتمعن فى كلماتها وأسلوب كتابتها فلم يستوعب هذا الأمر بأى حال ولم يفهم محتوياتها، وفجأة قال مذعوراً هل زمرد على قيد الحياة ؟ ثم أجاب بالنفى قائلاً لا يمكن أن تكتب هذه الرسالة بنفسها فهى فى العالم الآخر، تتنزه فى الفردوس الأعلى، لكن كيف وصلت هذه الرسالة هنا ومن أحضرها ؟

ظل يفكر لفترة، ماذا يجب عليه أن يفعل الآن، فى البداية خطر بباله أن يعود إلى البيت بناء على نصيحة زمرد ، لكنه عاد فقال "لا ، فلا طائل من وراء هذه الفكرة، فكيف وبأى وسيلة أذهب إلى هناك، ولو افترضنا أننى ذهبت فمن يصدق هذه القصة؟ فالجميع سوف يكذبوننى ويسفهوننى.. لا.. لا يمكن أن أذهب ، وسوف أصبر وأتحمل قدر طاقتى، طوال السنوات التى سأعيشها، لقد عاهدت نفسى أن أعيش الأيام الباقية لى فى الدنيا عند قبر زمرد ومع ذكراها، فزمرد تقول إننى سأعيش لمدة طويلة، فتحمل المشاق فى هذا المكان أفضل من التشرد ، وللأسف فإن زمرد ستحزن من أعماق قلبها ؛ لأننى لم أنفذ وصيتها ، ولكنى سأقدم لها اعتذارى وسأبلغها إياه عن طريق الملائكة الذين ينقلون لها أخبارى يومًا بيوم، ومن الممكن أن تكون واقفة فى ذلك الوقت، ترانى وتسمع كلامى ، ومن الممكن أن يكون المعنى قرينًا للقياس (متطابق) تمامًا ومن الضرورى أن تكون روحها هنا فى ذلك الوقت لتسمع الرد على رسالتى ؛ فلماذا لا أقول ما ينبغى قوله ؟

استحوذت هذه الفكرة على قلبه واتجه بنظره إلى قبر زمرد: وبدأ يقول "حبيبتى زمرد أنا هنا فى هذا القبر المنير حيث تسكنين، وليس عندى

تلك الورقة النورانية التى تحمل إليكِ رسالتى فى هيئتها الترابية فاستخدمى نورك ونورانيتك بعناية، واسمعى عذرى بلسـانى يا حورية الوجه ومحبوبة الله الجـميلة وغواصـة بحـر رمـوز الوحدة والكثـرة! أى عـجب فى أن تشاهدى بنور عينيك الآن مسرحيـة ظلمى أو يصل إلى مسامعك الروحانية صوت تأوهى وأنينى الذى يفـتت الكبد، فلا ترسـلينى يا زمرد عند هؤلاء الناس ؛ لأن قصة روحانيتك وعصمـتك وقبولك أسمى وأنبل من فهمهم وإدراكهم، ولن يفقهوا قولى فأبعدينى بحبك لى عن هذه الذلة والمسكنة ، وإذا كان لصـوتى أثر على البلاط السرمـدى فحاولى أن تستـدعينى عندك وأن ترسلى الحور، أرسليهم بسرعة لكى يبعدونى عن متنزههم، إن روحى تهفو شوقًا إليك كطائر ذبيح، وأتوق للخروج من هذا القفص المادى ؛ فيا حبيبتى الفاتنة لاتجعلينى أتجه إلى مكان آخر بل استدعينى عندك" .

تضاعف حـماس حسين حين أبدى مثل هذا الرأى حـتى سقط على الأرض بعد أن بلغ به الإعـياء مبلغا ، وبـدأ يرتد على عقبيـه وعندما زاد وهنه احتـضن القبـر وغاب عن وعـيه، وقـد ضاعفت هذه الرسـالة من حمـاسه وقـضى ذلك اليوم فى غـم وحزن أكثـر من ذى قبل ، وكـانت الرسالة التى أرسلتها زمرد من موطن الحور قد زادت حنينه إليها ورأى فى المنام حبيبته سـاكنة الفردوس، وعنت له فكرة جديدة وهى أنه ربما ينتقص عالم الآخـرة من علم وإيمان أى مسلم إلـى حد ما مـثلما كـان الحال مع حسين ، فكانت الدنيا فى نظره هباءً منثوراً وبالنسـبة له فقد كان يوجد فى برزخ ما بين عالم النور والظلمة، وكـان مع إنكار الذات وعدم صبره يريد بأى شكل أن يمزق مـلابســه الماديـة والجسـدية ويـصل إلى عـالم النور ، واستمر على هذه الحالة شهراً ينتظر فى كل لحظة رسالة جديدة من زمرد ،

وفى النهايـة انتهى وقت الانتظار ووجـد رسالة كان هذا مـضمـونها: "يا حبيس الظلمة يا من تعيش فـى البحث عن التوحد معى، وأنت لا تدرى أن هذا الأمر لايؤثـر علىَّ أدنى أثر فعـلاقتى بك باقيـة فى ثوب روحى ، ولهذا السبب يعم السرور والبشر كل مكان فى هذا العالم ، ويبث الله فى قلبى متعـة وحلاوة خاصة بعيدة عـن الفهم والإدراك، إننى لا أستطيع أن أمـحـو التفـكير فـيك، ولا يمكـننى أن أبعـد عن قلبى الحـزن على المتع الروحانية فى ذكراك.

حـسنًا ، إنك نجـحت الآن فى الاخـتـيـار ، وليس هناك أى شىء يستطيع أن يُخرج من قلبك حبى أو ذكراى.

فلا تيأس واستعد للقـائى، تذكر أن ذلك ليس المكان الذى ستجدنى فيه ؛ فـأنا قريبة منك وبعيدة عنك أيـضًا ، لكن هناك مسافة كـبيرة على تلك البوابة التى ستـأتى منها إلىّ والوصول إلىّ يستلزم رياضـة ومجاهدة شـاقة، فـمن أجل هذه المهمـة ستكـبح جمـاح نفسك وتمارس الرياضـة الروحيـة وتمضى على طريق طويل ، وعلى هذا فلا فـائدة من الاصطدام بالجبال بدون مرشد أو شـيخ ولا فائدة قط من البكاء والعويل ؛ فلو كانت لديك رغبـة صادقة للقــائى فـدع عنـك هذا الوادى ، وأخـرج إلى غار كبير فى الشعـاب الغربية لجبل الجودى(*) والذى تحنث فيه كبـار الصوفية لأربعين يومًا ، فـالناس لايعرفـونه لكننى عندما جـئت إلى هنا علمت أن

(*) يطلق الجـغرافيون الإنجليز فى العصر الحـاضر على جبل جودى اسم "جـبل الإرادة" ، ويقع عند نقطة التقاء الحدود الإيرانية والتركية والروسية (المؤلف) .

– وهو جبل الجودى الذى استقرت عليه سفينـة سيـدنا نـوح ، وورد ذكره فـى القرآن الكريم (المترجم) .

إبراهيم عليه السلام عرف الله بفسخ العزائم من شروق الكواكب وغروبها ؛ هذا الغار هو ذاك الغار ، ويذكر النـاس اليوم أن هذا الغار فى أرض الشام لكن هذا كذب صُراح فلم يقض إبراهيم عليه السـلام طفولته فى الشام بل فى تلك الأرض ؛ حيث كان موطنه ، وحيث سكن نسله بعد أن استقرت سفينة نوح؛ فـعليك أن تتعبد فى ذلك الغار أربعين يومًا وتجـتهد فى تلك الفترة أن تعـيش فى اليوم الرابع على بعض النبات فـقط لسد رمقك، ولا بد طوال فتـرة الأربعين يومًا أن تضع أمـام ناظريك صورة واحـدة فقط ، وأن تكون فى قلبك فكرة واحدة فقط، أمـا الصورة فهى صورتى والفكرة فهى لقـاء ذلك المرشد الذى يضمك إلى مـريديه وحينئذ تخـرج من الغار وتمضى فى الـطريق ، وسـوف ترانى أيـام خلوتك فـأدعـوك إلىّ، لكن حذارى أن تنخدع بهذه الصـورة الخيالية وتتعثر قـدمك ولو مرة فتدرك أنه ليس هناك أى أمل للقائى، بعد الأربعين يومًـا وفى الليلة الأخيرة اتجه من هذا الغار ومن شـعاب جـبل الجودى إلى أرض الشام وأذهـب إلى مدينة الخليل بدون توقف حـيث يوجد هناك فى الجُـب المشهور ضـريح سيـدنا يعـقـوب وسـيـدنا يوسف ، وتجنب أن تقع أعين النـاس عليك ؛ لأنهم سـيـحـاولون منعك ، ولكن علـيك أن تحـاول النزول إليـه دون أن يعلم المجاورون والحُراس، ثم تـتـعيد مرة أخرى أربعين يـومًا بعد أن تجلس بين القبرين ثم تخرج من هناك إلى مدينة حلب، هناك ستـجد مسجدًا صغيرًا خلف مـحلة رامنه (ارامنه) يسـمى مـسـجد الشـمـاتين فـاذهب وقُم فى المسجـد، وفى اليوم التـالى سيأتيـك شخص فى صلاة الفـجر، سـيظهر مرتديًا مـلابس صوفيـة، شعر طويل، يـغطى جسمـه برداء أسود، غطى المشيب معظم شعر لحيته ، عـمامته خضراء لأنه من سادات أولاد فاطمة، ومع أن له فى عالم النـور (الفردوس) لقبًـا آخر يذكر به إلا أن اسـمه فى

عالم العناصر (الدنيا) "الشريف على وجودى" ، ومع أنه كما سيبدو لك من هيئته وحالته متواضع، ولكن النور يشع من عينيه بسبب العواطف الروحية الفياضة وكبح جماح النفس والرياضة الروحية، وتذكر جيداً ألا تذهب إلى "الشريف على وجودى" ما لم يأتِ إليك بنفسه ، وسوف تتعرف عليه بهذه العلامات الظاهرة واطلب منه الحقيقة ، فهذا الشخص هو الذى يستطيع أن يلاقينى بك ويحملنى إليك وفى يده مفتاح نجاحنا ؛ فإذا كنت متيمًا بى وراغبًا فىّ ؛ فعليك أن تكون فى حالة تسليم ومحبة للشيخ ما لم يتم مرادك، وإذا بقيت فى خدمة الشيخ "الشريف على وجودى" عامًا كاملاً فلابد أن تسنح فرصة، وإذا ما كان فى حالة وجد وحماس ؛ فسوف يدعو الله لك بالتنزه فى الملأ الأعلى، فإذا سمعت هذا الدعاء فاركع على قدميه وأظهر له رغبتك الصادقة، فسوف يرضى عنك بلا شك، وعليك أن تتذكر أن كل أمر من أوامر الشيخ واجبة سواء استوعبت أو لم تستوعب الطاعة.

"لون سجادتك بالخمر، مهما يقل لك شيخ المجوس" .

فإذا طويت كل هذه المراحل، وأظهرت حماسًا وتفانيًا كاملين فى طاعة الشيخ فسوف يحقق مرادك ، وإذ ذاك ستجد يدى مفتوحتين لك، وأغدو أكثر محبة لك فعجل بالخروج الآن من هذا الوادى واترك قبرى وأظهر حماسًا ولهفة فى سبيل لقائى" .. المشتاقة إليك والمتيمة بك.. زمرد" .

لم يستطع حسين أن ينفذ وصية زمرد الأولى أو ما جاء فى رسالتها التالية بسبب كراهيته للحب والمحبين ، ولم يكن من الممكن ذلك بعد أن يقيم لحظة واحدة فى ذلك الوادى وتذكر حب زمرد والوفاء لها ، وفى

النهاية ودع قبر زمـرد بكبير حماس ولهفة ثم قبّل الرسـالة مراراً ووضعها على عـينيه ثم دسـهـا فى صدره بالقـرب من قلبـه، وشمـر عن ساعـد الترحـال. ومضى الممر الجبلى الضـيق المظلم بتمهل وحذر شـديدين حتى وصل إلى ذلك المكان الذى كان قد ترك فيه حـماره وحمار زمرد مربوطين بالشجرة ؛ فوجدهما ميتين من شدة السبرد والجليد بعد أن عجف لحمهما ، وكانت عظامهـما ملقاة تحت الشجرة، لكـنه وقف مشدوهًا حين رأى بدلا من الحمار الميت حـماراً نشيطا مربوطًا إلى الشجرة وعليـه سرجه ، وعلى غيـر ما توقـع وجد هذه الركـوبة ؛ فشكر الله الكريم الذى أظهـر له فى الدنيا كثـيراً من رموز عالم النور سلك طريقه ، وكـان كلما وجد الطريق وعراً وموحشًا يتـرجل ويمسك بزمام الحمار ، وكان إذا وصل إلى الأرض السهلة المنـبسطة يمتطى الدابة التى منحـها له الله ، ويتجـه مبـاشرة شطر الغـرب ؛ لأن هذه السلسلة من الجـبال تتـجـه من الشرق إلى الغـرب ، وهكذا بدأ يطوى البادية حـتى وصل إلى مدينة تبريز بمنطقة آذربيـجان بعد شهـرين من جوب القفـار ؛ حيث صار على مسـافة عشـرة أيام من جبل الجودى، وكانت تـبريز مدينة ذات رونق وبهاء ؛ فـخطر على قلب حسين أن يمكث فيها يومين للتنزه ، ولكنه تذكر تأكـيد زمرد له، فلم يمكث فيها ساعة أو ضحاها حتى رحل منهـا، وبعد عشرة أيام من طى الفيافى وقف تحت جبل الجودى الذى تناطح قمته الفلك.

وجبل الجودى هذا هو جبل شـاهق الارتفاع ، وهو أعلى من معظم جبال إيران وآسيا الصغرى بل وسلسلة جبل قاف، تجول حسين فى البداية جولة كبـيرة ثم خرج من الناحية الشـرقية للقلعة المنيـعة المكسوة بالثلج ، وبدأ البحث عن هذا الغار الذى يُتعبد فيـه مدة أربعين يومًا فعثر عليه بعد

أن ظل يبـحث عنه عـدة أيام يقطع الشـعاب والصـخـور، وكان مـعظم القرويين يأتون مـن أماكن بعيـدة لزيارة هذا الغار فيـصعـدون إلى فتحـته المعتمة التى يحـكى عن بركاتها الكثير من القصص الشـهيرة ، وينظر إليه اليهود والنصـارى والمسلمون جميعًـا بعين الاحترام والتبـجيل ، وقد علم حسين قـصة هذا الغـار على لسان زائر من هؤلاء القـرويين وعَلم أن هذا المكان هو نفسـه الذى سيؤدى فـيه امتـحانه الأول فى كبح جـماح النفس وممارسة الرياضة الروحية ؛ حيث كان سيدنا إبراهيم قد عرف ربه فيه.

وعندما وصل حسين إلى فتحة هذا الغار كان عنده جمع من الزائرين الذين يعتـقدون فيـه من مناطق لبنان وجبل الجودى ، وبعـد أن عادوا من هناك فى المساء غـربت الشمس، سمى الله ثم دلف إليه وشُـغل بالرياضة بداخله ، وبدأ مـحاولة جعل صـورة زمرد الخـيالية مـصباحًـا فى الظلام الدامس هناك ؛ فـوضعـها أمـام ناظريه فى كل وقت ثم خـرج فى الليلة الأخـيرة لليـوم الأربعين وقد حـد من شدة جـوعه بأكل العـشب وأوراق الشجر ثم عاد وجلس فى تلك الخلوة.

فى النهاية رحل بطلنا المتـحمس إلى الشام، وتراءت له مبـانى مدينة الخليل المقدسة بعد سفر ثلاثـة أشهر، ودخل المدينة ، ووصل مباشرة إلى هذا الجُب (السرداب) الذى كان النزول إليه مـحفوفًا بالمخاطر ؛ لأن الناس يتـزاحمـون حـوله فى كل وقت ، كـما أن الخطورة كـانت فى اعـتقـاد المجاوريـن بوجوب قتـل كل من يرغب فى النزول إلى هذا الغار المـقدس فأخفى حسين رغبته ، وحـصل على الإذن منهم بعد أن أقام معهم صداقة بحيث يبيت بالقـرب من مكان النزول ، وصلى مقيمًـا الليل لعدة ليالٍ ، لكن لم تسنح له الفرصة كاملة ؛ لأن مـعظم الناس يسهرون الليل عنده ،

ولن تسنح له الفـرصـة فى أى وقت إلا حين ينهـمك الناس فى العـبـادة والدعاء، وبعد أسبوعين أو ثلاثة استـيقظ ذات مرة فى الليلة الأخيرة فرأى الجـو قد خَـلاَ له ، ونام الناس من حـوله فذهـب بخطى وئيـدة إلى باب الغار ، وأخذ ينظر حواليه ثم هبط إليه بسهولة بعد أن اطمئن إلى أن أحدًا لن يراه.

لقـد كان الذهاب إلى هذا المكان يتطلب جـرأة وعزيمة أخـذ الرعب يتسلـل إلى قلبه حين تذكـر الأنبياء العظـام، فكانت أقدامه ترتجـف وقلبه يخفق، ورغـم هذا تغلب شوقه إلى زمرد على جـميع تلك المخاوف القلبية التى كانت تتزايد باسـتمرار، وقد شعر مراراً كـأن الملائكة تمنعه وتقول لا تدنس هـذا المكان المقـدس بأقـدامك ، لكنـه تجـاوز كل هـذه الأفكار والخيالات ، وأخذ يتحسس بيديه ورجليه الطريق فى الظلام الحالك المطبق حتى وصل إلى الـغار، اضطرب حسين بعـد هبوطه ؛ حيـث كان الظلام دامسًـا بحيث لا يمكن لأحـد أن يرى يده ؛ فلم يستطع حـسين النظر إلى قبور الأنبياء ، وظل واقفًا فـى هذا المكان يفكر لفترة من الوقت ثم استعد بعد أن استـجمع قواه وتحسس المكان ، ثم تقدم للأمـام ، وفجأة وصلت إليه أشعة الصباح ، واستقرت كالنهار المضىء فاستأنس بها لعله يصل إلى المكان الذى يريده بسهولة أكـثر ، وكان له ما أراد ، فقـد قلل ضوء النهار من العتـمة ووقع نظره على عـدد من المقابر ، وكان بيـنها رفات يعـقوب ويوسف عليهما السلام ، وكانا فى مصر عندما ماتا وتم تحنيطهما(*) طبقًا

(*) كان المصريون يدهنون جثث ملوكهم بنوع من الزيت وبخليط معين حتى لاتتحلل أبدًا ولازالت جثثهم التى تستـخرج من مقابرها حتى الآن كما هى على حالتها ، وتوضع هذه الجثث فى متاحف باريس ولندن بعد استخراجها من مقابر مصر ويسمون هذا النوع من الجثث بالمومياوات (المؤلف) .

لعادة المصريين القدماء، وكان الجسدان فى تابوتين من الزجاج تبدو منهما الرهبة والجلال والرعب فى ذلك الظلام فارتعدت فرائص حسين بعدما رأى هذين الوجهين المقدسين ، ولم يجرؤ على أن يخطو خطوة واحدة إلى الأمام ، وظل واقفًا عدة لحظات خائفًا مشدوهًا ثم تجرأ ومضى قدمًا إلى الأمام ؛ حيث جلس بين القبرين صامتًا يتطلع طوال الوقت إلى وجهيهما المهيب وقد بلغ به الخوف مبلغًا بات معه من الصعب أن يتشكل أمام عينيه صورة زمرد ، لكنه كان فى أثناء عبادة الأربعين يومًا فى جبل الجودى يحاول أن يجعل صورة الحبيبة ماثلة أمام ناظريه وواضحة المعالم والقسمات، وبعد قليل من الجهد ظهرت له صورة حبيبته بين الوجهين المباركين.

الخلاصة أنه شُغل هناك بالعبادة ، ولكن لم يكن من الممكن أن يخرج فى أى وقت لينال ما يسد به رمقه مثلما كان الحال عند غار جبل الجودى ، ولما كان على دراية بهذا الأمر ربط فى ردائه قليلاً من الجبن لوقت الضرورة، وقد أكل منها فى اليوم الأربعين وشكر الله وأكمل عبادة الأربعين يومًا هذه أيضًا بعد جهد جهيد، وفى الليلة الواحدة والأربعين أراد أن يخرج فى صمت وبخطىً وئيدة دون أن يعلم أحد به ، وسلك الطريق إلى حلب ، وكان الناس قد استيقظوا ؛ فرآه بعضهم فأحدثوا ضجيجًا ، وهجموا عليه وأخرجوه من الغار ، ووقع أسيراً فى أيدى المجاورين الذين اتهموه بالوقاحة وسوء الأدب وكادوا أن يفتكوا به، لكن للصدفة أو لحسن حظه أن حاكم مدينة الخليل كان قد لقى حتفه على يد أحد الفدائيين الباطنيين، مع أن الناس كانوا يخشون من الباطنيين إلا أن الأمر الأكثر خطورة هو الانتقام الذى يعقب ذلك، وبينما كانوا يعدون العدة للهجوم على إحدى قرى الباطنيين قامت جماعة كبيرة من الباطنيين

بالهجوم ، وإذ ذاك باغتت مجموعة كبيرة من الباطنية الأهالى بالهجوم ، وأعملت فيهم القتل وسفك الدماء ، ومات كثير من الناس ، وفى أثناء هذا الاضطراب والهرج والمرج تحرر حسين من قيد المجاورين ورحل إلى حلب.

دخل حسين حلب فى مساء اليوم الثامن، سأل العابرين فى الطريق السبيل إلى حي رامنه ومسجد الشماتين ، وعندما وصل هناك ألقى عصى الترحال، وبعد أن أكل وشرب فى أول الليل أدى صلاة العشاء ثم استلقى ونام، وبالرغم من أنه كان متعبًا إلا أن الشوق لوصال زمرد كان كل شيء ؛ فلم يكد أكثر من نصف الليل ينقضى حتى فتح عينيه وظل يتقلب ذات اليمين وذات الشمال حتى الصباح فى انتظار صلاة الفجر ، واستعد بالوضوء قبل الأذان ، وجلس على الباب ، وأخذ يطالع وجوه القادمين ، وقد تراءى له أصحاب البيوت المجاورة وقد اصطدمت أقدامهم وتعثرت بسبب الشعور بالنعاس عندما انصرفوا إلى الوضوء ، وانتبه على حسين أكثر الناس لأنهم كانوا على شاكلة الشيخ الشريف على وجودى ، وهكذا لم يكن واثقاً فى كل المرات ؛ لأنه إذا توفرت بعض العلامات فى أحد القادمين لم تكن تتوافر فيه سائر العلامات الأخرى، وفى النهاية بدأ قلبه ينقبض وأخذ يحدث نفسه فى صمت: أنا لست متأكداً من أننى سألتقى بالشيخ، وما أن نطق بهذه العبارة حتى جاء شخص له نفس أوصاف الشيخ موقف ووضع يده على ظهره وابتسم ثم قال بلهجة مطمئنة وبلطف وعطف: أنا أعرف يا حسين أنك جئت تبحث عنى ، وعندما سمع حسين هذا خرَّ على قدميه ، وبعد أن قبَّل أقدام الشيخ "الشريف على وجودى" بدأ يزرف الدموع عند أقدامه قائلاً: ساعدنى يا سيدى، (أنت وحدك تستطيع أن ترشدنى إلى طريق الحق) فأنت وحدك الذى تعرف الصراط المستقيم الذى يستطيع الإنسان إذا سلكه أن يعرف الله وعالم الأرواح.

قال الشيخ: (فى جلال وحبور): ما هى عزيمتك وما مدى شجاعتك حتى تستطيع فهم الرموز المختلفة لهذا اللاهوت غير الموجود(*) وأنت قطرة ضئيلة غير صافية بالنسبة لبحر الوجود ومحيط الوحدة.

حسين : لا غرو، فليس لى أى وجود، ولكن عندما تمسك بيد سباح بحر الوحدة فلا عجب فى أن أعبر هذا البحر الفياض الزاخر ، وبعد أن قال هذا بكى ، وبدأ يلثم قدم الشيخ.

تناقص جلال الشيخ بعض الشيء فأمسك بيد حسين ورفعه إليه ثم ضمه إلى صدره ودلّك صدره بصدره بقوة شديدة عدة مرات وقال: حسنًا اتبعنى ، وسأختبر صبرك وتحملك، وعندما أدرك مبلغ صدق طلبك سأضُمك عندها إلى حلقة أتباعى.

وبعد أن سمع حسين هذا الكلام رفع رأسه شاكرًا وقَبّل يد الشيخ وذهب معه وشاركه الصلاة وبعد الصلاة ، اصطحبه الشيخ على وجودى معه إلى الخانقاه الخاصة به، وكانت على مسافة قصيرة من المدينة فى مكان، تعجب حسين بعد أن راودته هذه الفكرة وهى أنه ليس لمسجد الشماتين ميزة حتى يذهب الشيخ إلى هناك لأداء صلاة الفجر، ولكى يستفسر عن هذا السر سأله بأدب هل حضرتكم تأتون كل يوم للصلاة فى هذا المسجد؟

(*) يعتقد أصحاب الفرقة الباطنية أن نسب أى صفة إلى الله يعد كفرًا بالله، أما الصفات المذكورة فى القرآن فى الظاهر فهى الصفات التى منحها الله للمخلوقات فهى من هذه الناحية هى الصفات التى منحها الله للمخلوق يُقال لله نُور فهو منور وبصير فهو مُبصر، الله يمنح النظر .. وهكذا يقال الموجود ؛ فالمقصود منه الواجد ثم ينقون هذه الصفات بعد نسبتها إليه ؛ أى يقولون موجود وغير موجود (المؤلف).

الشيخ : (بلا اهتمام) لا . . ذهبت إليه اليوم فقط.

حسين : ربما ذهبتم إلى هناك مصادفة لأمر ما؟

الشيخ : (بقليل من الغضب) ولا تتجسسوا ؛ لا يجب البحث عن المعنى الخفى لتلك الرموز، فلو توفر الشوق الصادق لا نكشف الأسرار من تلقاء نفسها فى وقت ما، والآن وقد خرج من فيك السؤال فسأخبرك، اسمع، إن الناس الذين تنعكس على قلوبهم أنوار الله السرمدية والأزلية، ينكشف عن أعينهم ستار الحجب ، و يُلقى نور الأنوار بأشعته لتصل أشعة عيونهم إلى هناك أيضًا ، فجسمى المادى كان فى تلك الخانقاه، لكن الأشعة القوية الحادة لتلك العينين كانت فى جانب عند جبل البرز عندما كنت تبكى محتضنا قبر زمرد ، وفى غار إبراهيم فى جبل الجودى حينما كانت أمامك صورة زمرد فيما كنت تبحث عنى فى قلبك ، كانت سهام تلك الأشعة فى الغار (الجب) ، وحين كنت ترى وجه زمرد بين وجهى سيدنا يعقوب ويوسف عليهما السلام رأيتك بلا حول ولا قوة ، ولما كنت أسيرًا فى أيدى مجاورى مدينة الخليل أرسلت أصدقائى لكى يساعدوك ؛ حيث أغاروا على أهل المدينة فسنحت لك الفرصة للمجىء إلى هنا.

حينما كان الشيخ يتحدث كانت عيناه تلمع فى حدة لم يستطيع حسين أن يتحملها فوضع رأسه على قدمى الشيخ ، وبدأ يقول فى حماس المجذوب : أنت تعرف كل شىء، لا يخفى عليك أى سر، وتعلم كذلك ما آمل وأتمنى.

فقال الشيخ (فى حماس وحمية) أعرف كل شىء ، إلا أنه لم يحن الوقت بعد لإظهاره، فظهور هذه الرغبة على لسانك مرهون بوقت خاص

وحـالة خاصــة ، ولابد أن تكون فى حالة صـمت الآن. أصيب حـسين بالرعب بعد أن سـمع هذا الأمر وبدأت فرائصه ترتعد بـعد أن سقط على الأرض، وبعد فـترة قصيـرة أخذ الشيخ بيـده، ومسح بيده المبـاركة على صدره وعـينيه مـواسيًا ثم قـال: "يا حسين سـتظل فى صحبـتى وتسكن الخانقاه الخـاصة بى ، وسوف تصل سريعا إلى هدفك بقـدر ما تأخذ منى وتمتثل لأوامرى التى هى فى الأصل أوامر إلهية ، وذلك بنشاط وهمة وبلا عـذر، لكن عليك أن تعلم جـيـدًا أن نَفْسـك وقلبك غيـر مـؤهلين الآن للتنوعات الربانية والتحولات الطبيعية ، ويمكنك فهم الأسباب و العلل إذا ما تمثلت دائمًا قصة مـوسى والخضر ، وتأكد أن لكل ظاهر باطنا والنتائج دائمًا تكمن فى الباطن، وأن أهل الظاهر لا يستطيـعون فهم رموز القدرة، والروح تنال العـقاب والجزاء وهو مـا يظل يتصرف فى الـباطن ، ويكون دائمًا داخل القلب وحاكما على الإرادة ، وستجد هذه الأعضاء و الجوارح الظاهرية فى هذا الجوهر وستظل فيه دائمًا ، ولهـذا فإن حركاتها ليس لها أى اعتبار ؛ فالقاضى والمفـتى كلاهما جاهل وناء عن نور الأنوار الإلهية ، ويصدران أوامرهمـا فى ضوء الحركات والأفعـال الظاهرية، فالألوهية فى قـصة مـوسى والخضـر لم تؤيد مـوسى فى حب الظاهر بل قـضت لرأى الخضر الذى كان يفهم الرموز البـاطنية والإرادة الصمدانية ، وهكذا فانظر إلى سيدنا إبراهيم عندما جعل زوجته أختًا له اضطرب أهل الظاهر كثيرًا ؛ لأن عصـمة الرسـول قد اعتـراها الخلل والنقص ، إلا أن هذا الشىء يدل على جهالتهم ؛ لأن الله ينظر إلى ما كان فى قلب إبراهيم.

الخلاصـة يا حسين عليك أن تدرك جيـدًا أن لكل ظاهر باطنا ، وأن الله نصير للبـاطن ، ويجب عليك طاعة الشيخ والمرشد طاعة عـمياء مثل امتثال موسى لرغبة الخضر.

حسين : (بعد أن وضع يده على صدره) لاشك أننى سأمتثل مثله، ولكن هل يجب ارتكاب المعاصى والأعمال الخارقة بلا فهم.

الشيخ : (فى غاية الجلال وبعد أن احمرت عيناه) أتظن أن المرشد سيأمرك بعمل كبير عظيم)؟

حسين : (وهو خائف) لكن من الممكن أن يبدو هذا الفعل للمريد والمعتقد ذنبًا.

الشيخ : نعم، ممكن، لكن باطنه ليس ذنبًا ، والنتائج تكون مترتبة على الباطن فقط.

حسين : لكن ذلك الباطن يكون فى قلب الفاعل والمرتكب، فأنا أرتكب فعلاً ستكون نتائجه مترتبة على هذه النية ؛ فالذى فى قلبى إذا عرفت أن جانبه الباطنى سيئ فستكون نيتى سيئة كذلك، وعندما تكون نيتى سيئة فيجب أن تكون النتيجة مطابقة لهذه النية.

الشيخ : (بعد أن ثار وهاج واحمرت عيناه) فهل فى رأيك يمكن أن تشك فى نية الشيخ؟ وقبل هذا إنكار التسليم بالسر اللاهوتى؟

حسين : (بعد أن خر على قدم الشيخ): مطلقًا ، ولكن حديثى هذا "ليطمئن قلبى"(*) لن يأتى الله بذلك اليوم الذى أشك فيه فى نية الشيخ.

(*) إشارة إلى الآية الكريمة فى قوله تعالى : (أولم تؤمن؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى) .

بعد أن سمع الشيخ هذا الجواب رفع حسين وضمه إلى صدره ومسح بيد الرحمة على ظهره وقال: اسمع، لاشك أن الظنون ستأتى إلى قلبك، ولكن عندما تمضى قدمًا على طريق الباطن ستدرك أن قيمة المريد لا تزيد عن كونه آلة بلا روح ، واعلم أن المريد مثل سيف فى يد الشيخ، ويمكنك أن تفهم أن السيف إذا انهال سيبطح برأس من يشاء ، إلا أن المدح أو الذم لا يمكن أن ينسبا إلى السيف، بل إن هذه الأشياء تنسب إلى من أمسك بالسيف ، وتأكد أنه ربما زال شكك الآن وبدأت تدرك أن أفعال المريد تتعلق بالجانب الباطنى لنية الشيخ لا إلى إرادة المريد نفسه، وسوف يصقل فكره بعد طى (مدارج) الإرادة الإنسانية بعدما يبدى الطاعة والهمة ، وعندئذ سيصل إلى درجة القرب ، وتكون نيته حينذاك جديرة بالاعتبار، لكنه مادام يطوى درجات الإرادة فإن نواياه وإرادته ليس لها أى اعتبار، وحتى ذلك الوقت يكون الشيخ والمرشد مسئولاً عن عمله.

حسين (بعد أن قبّل يد الشيخ بحماس وحمية): صحيح ولا شك فى ذلك، لقد رُفع حجاب الحقيقة عن عينى ، ولن أبدى عذرًا فى تنفيذ أى أمر.

الشيخ : يا حسين إن المريد ألقى على عاتقه مسئولية حساسة ، فهل هناك أكثر من هذا كبحًا لجماح النفس بحيث ينفصل الإنسان كلية عن أفعاله بعقله وقلبه، ولكنك لو أمعنت النظر ستعلم أن هذه الأحكام الإلهية مطابقة تمامًا لسرعة العصر ؛ فالأعمال التى نفذها الخضر التى استبعد فيها موسى - كان جانبها الباطنى فى قلب الخضر فقط ، وكانت فى رأى موسى معاصى حقيقية، لكن لا نستطيع القول إن موسى أذنب وشارك فى مثل هذه الكبائر، فلماذا كان هذا فقط ؟ لأنه فى العالم الباطنى كان الخضر المرشد وموسى المريد.

فـالطـبـيب يصف الدواء الشـديد المرارة بل والسـام فـى الظاهر ؛ والمريض ، مع أنه يجهل فوائده ، إلا أنه يتناوله بلا تفكيـر وتكون النتيجة واحدة فهو يـفهم ما فى نية الطبيب ؛ والأم والأب مثـلاً يضربان ولدهما على عمل ما، والولد يعـمل هذا العمل ويعتبره من قلبه عـملاً طيبًا، لكن الأم والأب يضربانه على أساس أنه مضر طبقا لرأيهما ، وتكون نتيجة هذا العمل طيبة عند كل واحد منهما.

كانـت هــذه الخطبة مؤثرة لدرجـة أن حسـينًا لـم يستطع أن يتـحمل سمـاع أكثـر من هذا ثم انتابتـه حالة شـديدة من فقدان الـوعى، وصاح قائلاً: "لا شك أن مـا تقوله صواب ؛ فـقد اطمئن قـلبى ولن أعصى لك أمرًا".

لقد جعـل علم الغيب وهذه الخطبة المدعمـة بالدلائل حُسينًا مفـتونًا بالشيخ علـى وجودى ؛ فلم يعد هناك أى شىء فى الـوجود فى نظره إلا الشيخ، فدوىّ صـوت الشيخ فى أذنيه فى كل وقت ، ولـم تتـحول صورة الشيخ من أمام عـينية فى أى لحظة، وكان قلبه ينتظـر أوامر الشيخ فى كل لحظة، ولـم تعد أيـضًا صورة زمـرد ماثلة أمامـه الآن بشكل منتظم، فكان احيانًا يـتجه بخياله نـحو زمرد عندما يتـمدد فى حجرة الخانـقاه ويقول : "حبيبتى زمرد إلى أين أرسلتينى لقد بدأت أنساك".

الخلاصـة أن حسينًا نال درجـة الفناء التام فى الشيخ تمامًـا ، وقضى أحد عـشر شـهراً فى خـدمتـه بحب وإخلاص ، وفى تلك الأثنـاء غاب الشيخ ذات مرة لثلاثة أشهر حين سـافر سرًا إلى كان ما، وقد ظل حسين أثناء غياب الشـيخ فى تلك الخانقاه ، ولكن فى هذه الفتـرة عرف مريدى الشيخ ، وعرف منـهم مدى انتشارهم فى البلاد ؛ لأن الـعادة جرت على

أن يأتى هؤلاء لزيارة الشيخ مرة كل سنة بعد أن يسافروا مسافات طويلة، فيعودون بعد أن يستمعوا إلى الأحكام الجديدة العجيبة والغريبة التى ينصاعون لها على الفور، فمن ناحية يأتى مريدو خراسان ومكران وسيستان وفارس وروذبار وآذربيجان والعراق العربى والعجمى ، ومن ناحية أخرى يأتى مريدو عمان وحضر موت والحجاز واليمن وزنجبار ومصر وطرابلس الغرب والجزيرة وجميع بلاد أفريقيا وآسيا الصغرى ، ويأتى هؤلاء الناس بملابس وأزياء مختلفة، يلتقون بالشيخ فى معظم الليالى خفية ثم يرحلون قبل انبلاج الصبح، وكان حسين ينظر إلى هذا الأمر باحترام وتقدير بالغ ؛ فقد كان مريدو الشيخ والمغترفون من فضله منتشرين فى جميع أنحاء العالم يعيشون فى الظاهر حياة البساطة ونكران الذات مع مالهم من سطوة وتأثير بالغين ، وذات ليلة اجتمع حول الشيخ نحو عشرة مريدين ، وانتحى حسين ركنا بأدب جم ، وانفتح أكبر فيض للرموز الحكمية والروحانية على لسان الشيخ ، وقد حضر شخص من مصر قال بأدب فى لهجة يشوبها الشك : "لم أستوعب هذا فكيف يستمتع الإنسان بمتع الجنة بعدما يترك هذا الجسد الترابى؟ قال الشيخ مجيبا بقدر من الغضب "تمامًا مثلما تتمتع بهذا الجسم فى الدنيا" .

فقال كيف هذا واللذة والألم من متعلقات الجسم فقط؟

قال الشيخ : (بعد أن تحمس قليلاً) مع أن الروح بلا جسد ، لكنها تمضى كأنها فى الجسد.

قال الشخص : وكيف يمكن هذا؟ فما دامت المادة ليس لها كثافة ؛ فهل يمكن أن يكون له حيز؟

بعد أن سمع الشيخ هذا الكلام خف غضبه وطلب حسين وقربه منه وقال: "عندما كنت فى غيابة جُبٍ مدينه الخليل وغار الجودى وشعاب وادى جبل البرز هل كنت تدرك وجودى هناك فى ذلك الوقت معرفتى بكل أحوالك؟

حسين : (بعد أن وضع يده على صدره) بلاشك، رغم أن عينى العاجزتين لا ترى إلا أن جلوة حضرة الشيخ موجودة بالضرورة وإلا لم يكن من الممكن أن تطلع على تلك الرموز هناك ، وبعد أن سمع الشيخ هذا الكلام اعتراه قليل من الفخر والاعتزاز ، وأخذ يجول بنظره بين الناس، وركز نظراته الحادة من بينهم جميعًا على وجه ذلك الشخص الذى كان يشك فيه ؛ لأن قلبه لم يطمئن إليه حتى الآن. وعندما رأى الشيخ على وجودى على هذه الحالة من السخط والتبرم أخذ يداهنه ، وقال بصورة مباشرة : لاشك أن حضرتك ستكون موجوداً هناك وسترى حسين فى كل أحواله، لكن روحك كانت حاضرة ولم يكن جسدك متشكلاً، ولو كان الأمر كذلك لرأى حسين بعينيه أيضًا جمالك النورانى.

بعد أن سمع الشيخ هذا الحديث لم يقر له قرار وتحمس وهب واقفًا وتضاعف بريق عينيه ورق قلبه واغرورقت عيناه ونظر إلى ذلك الشخص وقال: هذا الجسد الكثيف جد متمرد، فلم يرد أن يفهم، ولم يحاول فهم شهود نور الأنوار مع وجودها ، كما لم يدرك أحد سر خلق الدنيا؟

ولماذا تبقى هذه الروح رهينة هذا القفص الترابى لفترة من الزمن؟ فلتسمع منى هذا السر أنا الذى جئت حالاً بعد أن تجولت للحظة واحدة فى عالم اللاهوت ، واطلعت على تلك الرموز المكتوبة منذ الأزل على أطراف العرش الأعلى أو النور اللاهوتى، ففى النشأة لم تكن فى الروح

المجردة قبل الحلول فى الجسد هذه الصلاحية وهذا الاستعداد ؛ أى لم تكن لتتمتع بالفرح والسرور المادى ؛ فقد كانت فى ذلك الوقت روحًا مجردة، غافلة تمامًا عن كيفية الاستفادة من المتع والملذات ، وقد وضعت فى هذا الجسد الترابى فقط لتتعلم هذا الأمر لفترة زمنية محدودة وهى الفترة التى تطلقون عليها اسم الحياة، ولحصول أرواحنا على درجة الكمال فقط، فإن الروح اللطيفة تنشئ روابط وعلاقات مع هذه المادة، وعلى هذا تنشأ معرفة بكل أنواع اللذات وبكل صنوف الآلام، وبعد الانفصال عنها، عندما تريد أن تتشكل وتتحيز يمكنها أن تتأثر باللذة والألم، وعلى نفس النسق يمكن لأى شخص أن يخطى بهذه القوة وهذا الاستعداد بعد طى المدارج الروحانية ، وفى حالة بقائه فى جسده فإنه يغيب عن نفسه أو عن شكل الروح المجردة غير المتشكلة وغير المتحيزة ، وهكذا فإن الروح الإنسانية عمومًا تتعبد عبادة الأربعين ليلة بعد أن تحبس فى حجرة هذا الجسم الترابى وبعد مغادرتها إياه عندما تريد أن تظهر بنفسها فى شكل أو جسم ، وحين تصل إلى هذه الدرجة من الكمال تكون ظاهرة وواضحة فى الشكل الذى تختاره ، ولعلك سمعت عن كثير من الصوفية العظام والشهداء ؛ حيث كانت أجسادهم فى زوايا القبر بينما الروح ظاهرة أمام أنظار معظم الناس فى شكلها أو فى شكل آخر. وهذه مجرد روح قد جاءت بدون جسم لتحصل على هذا الكمال والمقصود منها جبريل ، والذى يظهر فى هيئة كلب أو فى أشكال أخرى أمام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا أنه ليس هناك أحد فى هذا العالم عارف بسره سواى ؛ أى كيف حصل جبريل على هذا الكمال الروحى؛ ففى حديثه قال اسمع (لتعلم) أن ولادة المسيح ترتبط بهذا الرمز. لقد كان جبريل هو الذى حل فى جسد مريم الصديقة، وبعدها تشكلت صورة المسيح عليه السلام ثم

بلغ ذروة كماله الروحى فى فترة زمنية وجيزة وقد انخدع المسيحيون بأنه كان الله ، لكنه لم يكن سوى روح فقط كانت من جسم موجود فيه روح أخرى، وقد صعد إلى السماء بعد أن اكتسب المواهب الجسمانية، لقد كانت روح المسيح روحا أخرى كانت فى جسمه ، لكن إلى جانب هذا فإن روح جبريل الآن قد حلت فى صورته ، وقد ظلت عدة أيام ثم اختفت بعد أن ظهرت عظمة الألوهية فى جسم المسيح، فما كان إحياء الموتى من عمل المسيح ، بل كانت مجرد نتيجة مسلمة وعلامات للقوة الملائكية، وقد تمت تجربتها للناس كذلك فى عهد موسى[*] عليه السلام ، لكن الذين لم يعطهم الله عينًا بصيرة لا يمكن أن يفهموا ذلك حتى اليوم، وإنما يضطربون بمجرد ذكر معجزة المسيح، وهكذا يمكن أن تكون مهارة التشكل والتحيز، هى الهدف الذى يأتى كل روح إلى الدنيا لبلوغه ، ومن هنا فإنها تنال الثواب والعقاب على سلوكها بعد الرحيل فتكون فى الجنة أو فى النار طبقًا لكمالها.

فأنت جاهل بمواهبى وقدراتى، أنا ذلك الشخص الذى هو أنا بنفسى لا كل شخص أستطيع أن أصل إلى الملأ الأعلى وأرى كل شىء هناك، بمواهبى وقدراتى أستدعى أشكال الجنة الروحانية أمام هذا الجسم الترابى.

وبمجرد أن قال الشيخ هذا الكلام بكى حسين وانتحب وأخذ يتضرع أمام الشيخ ثم خر على قدميه ، وقال يا سيدى أنا لا أشك فى أى مسألة ،

(*) يذكر بعض المفسرين أن سيدنا موسى عندما دخل بحر القلزم أراد فرعون التقدم ليتعقبه ، إلا أن فرسه لم يتقدم ، وقد ظهر فى ذلك الوقت جبريل ممتطيا صهوة جواد ، وأخذ يتقدم بينما بدأ فرس فرعون يهوى معه إلى قعر البحر، وكان السامرى يرفع الطين تحت سنابك جواد جبريل، و بإلقاء هذا الطين بدأ القول بالعجل الذى عبده بنى إسرائيل (المؤلف).

ولكننى أتمنى أن أدخل الجنة وقـد حان الوقت لكى أعلن عن رغـبتى لك وأنا متأكد أننى لن أظل محرومًا.

ظـل حـسـين فـترة من الـوقت ساجـدًا عند أقدام الشـيخ ، إلا أن الشيخ كان قـد امتلأ بحماس جعلـه يقف صامتًا لعدة ساعـات، ثم رفعه وأجلسه وقـال: يا حسين ، لقـد أفـدت إفـادة كـبيرة من حـمـاسى فـى ذلـك الوقـت ؛حـسنًا ، الآن جـاء وقـت التـأمـل وغـدًا الخـلـوة ثم الالتماس والطلب، لا شك أن الوقت قد حان لكى تجنى ثمار هذه المعاناة وتلك المكابدة وقد بقى أمـامك الآن امتحان، وهو امتـحان صعب، لأرى إلى أى مدى تـسلم يدك بنفـسك إلى المرشـد، ولتعلـم أن التـأمـل يكـون بقدر امتثـالك لأمر مرشدك، ولعلك تتأخر فى الحـصول على مرادك بهذا القدر.

انصرف المريدون جميعًا بعد أن استأذنوا من الشيخ، وانصرف حسين كذلـك، وتمدد على فراشــه ، لكنه قضى ليلتـه فى غاية القلق وضـاعف الانتظار من نار الشوق ، وفى الصباح وبعد صـلاة الفجر كان الشيخ على وجودى قد جلس بعـد أن فرغ من أوراد الصباح فخرّ حسين عـلى قدميه وصاح: الآن ليس لى مـقدرة أكبـر على الصبر، وأنت نفـسك عليم بكل الأحوال ، ولست بحـاجة إلى الإفصاح عنهـا، لكن بالله عليك أرجو أن تقابلنى بزمرد سريعًا.

الشيخ : حـسنًا سوف تلتـقى بزمرد ، ولعلك تنجح فـى وصلها ، ولكن عليك أن تستعد لذلك استعدادًا جيدًا.

حسين : مستعد بالقلب والروح.

الشيخ : انظر، ولا تفكر.

حسين : مطلقًا.

الشيخ : ولا ينشأ فى قلبك شك أو فساد عقيدة.

حسين : لا ، قط.

الشيخ : هذا عمل من قبيل الجرأة والشجاعة.

حسين : سأجود بالروح.

الشيخ : وفيه مخاطر أيضًا.

حسين : حسنًا ، فليكن .

الشيخ : فلتسمع.

حسين : سمعًا وطاعة.

الشيخ : ليس الآن، ولتقوى قلبك.

حسين : قلبى قوى جداً.

الشيخ : إنى أعلم أنك قرأت الكتب الدراسية على الإمام نجم الدين النيسابورى ، وأنك من مريديه أيضًا.

حسين : (فى دهشة) لاشك ، لقد شاركت فى حلقته لمدة خمس سنوات كاملة.

الشيخ : ما مدى احترامه وتقديره فى قلبك؟

حسين : اعتبره - بعدك - أكبر عالم وأعظم متصوف وأزهد الناس وأكثرهم تقوى من بين العالمين كلهم.

الشيخ : حسنًا ، فلتذهب ولتشترك فى مجلسه ، وعندما تسنح الفرصة اقتله.

وما أن نطق الشيخ بهذه العبارة حتى أطلق حسين صيحة وغاب عن وعيه.

الباب الثالث

السفر إلى الملأ الأعلى

كان الإمام نجم الدين النيسابورى من كبار أئمة ذلك العصر، اشتهر فى زمانه بالعلم والكرم والتقى والورع، ولا يوجد مكان إلا وله فيه تلميذ تكون له إمامة إحدى جماعات المسلمين الكبرى ، ولم يكن أستاذ حسين ومرشده فحسب بل كان عمه أيضًا ، وكان موطنه الأصلى مدينة آمل ، إلا أنه خرج من بيته فى صغره شوقًا لطلب العلم، ووصل إلى بغداد بعد أن شارك فى مجالس العلم الكبرى فى العالم، وظل يتلقى العلم فى المدرسة النظامية لفترة طويلة ثم انصرف إلى طلب العلم فى البلاد الشرقية ؛ حيث اشترك فى المجالس العلمية فى بخارا وهراة ، وبعد أن اغترف من فيض مجالس العلماء هناك عاد إلى نيسابور، واستوطن بها ، وكانت نيسابور فى تلك الأيام من أكبر مراكز العلم والمعرفة ومعقلاً لأقطاب التصوف المعروفين ؛ أما حسين فقد كان طيب النفس قريبا من الله ؛ لذا تملكته الحيرة والدهشة والاضطراب بعد سماع الأوامر بالقتل، وسقط مغشيًا عليه.

لم يحاول الشيخ علـى وجودى أن يعيد حسين إلى وعـيه، بل تركه هكذا مُلقى على الأرض، وظل منتظراً فترة من الوقت حـتى يسترد حسين وعيـه من تلقاء نفسـه، ويعده بأن ينفذ مـا أمر به ،ولكن عندمـا تأخر به الوقت في استـرداد وعيه تركه الـشيخ وانصرف إلى حجـرة أخرى، وفى غضون ساعتـين عاد لحسين وعيه فتذكر أمـر الشيخ الواجب التنفيذ، لكن حالته كانت أقرب إلى الغوص فى بحر الغفلة ، لكنه تماسك ونهض وأخذ ينظر فى كل صوب وحـدب ، وكان الشـيخ على وجودى غائبًـا ، وكان وحيداً فأخذ يفكر فى الأمور الـسابقة ووقع فى حيرة: ربما أخطأت فى فهم قصـد الشيخ لاشك أنه يبـدو كذلك ؛ فـمثل ذلك الشـيخ الطيب النفس المدرك للحـقيـقة ربما لا يأمـر بهذا النوع من الظلم والإجـحاف الشـديد؟ أيكلفنى بالقتل العـمد؟ وقتل من؟ الشيخ نجم الدين النيـسابورى ، وليس على وجـه الأرض فى ذلك الوقت من هـو أعلم منه، فـمن المؤكـد أننىّ سمعت خطأ، ولكن فلنفرض أن الشيخ أمر بهـذا فما عساى أن أفعل فهل أقتل إمامى ومرشدى وعمى الورع؟ (بعد أن اختلج قلبه) يبدو أن هذا أمر صعب جدًا! ماذا ستقول الدنيا؟ أمَّا فى القرآن فقد ورد قوله تعالى: (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجـزاؤه جهنم خالدًا فيها) إننى لن أجنى من تنفيذ هذا الحكم إلا الخـزى والعـصـيـان فى الدارين ، ولا يبـدو منه أى فـائدة إلا "خسران الدنيا والآخرة" ولا شىء آخـر، لكن الشيخ كان قد قال إن لكل ظاهر باطنًا فمن الضرورى أن تكون فيه فائدة تذكر، فهو فى الحقيقة يعرف رموز القدرة (الإلهية)، أنا لا أسـتطيع المقارنة بين الإمام نجم الدين والشيخ على وجودى ، ولا أتخيل أن تكون نية الشيخ علـى وجودى سيئة ، فأى عجب فى هذا لو أمـر بارتكاب عمل مكروه فى الظاهر من أجل مـصلحة روحانية، فـإذا كان هذا هو الحكم فى الواقع فلا يجب علىّ التفكيـر فيه،

فهـذا الامتحـان الأول لى فلو اعتذرت إليـه عذراً طفيـفًا سأكـون آثمًا ، وسوف ظل محرومًا من وصـال زمرد ، ومن البديهى أن تكون هناك فائدة دينية من تنفـيذ هذا الحكم ؛ لأن أمـر الشيخ واجب النفاذ، وتبـقى سوء السمعة الدنيوى ، ولن يكون لها وجود بعد ذلك ، وحتى لو بقى أى قدر منها إلا أن مكاسب جمة ستعـوّض ذلك حيث فيكون من نصيبى فى هذه الدنيا وصل حبيبتى زمرد.

بعد أن اختمرت هذه الفكرة فى قلب حـسين خرج من الحجرة وأخذ يبـحث هنا وهناك حتـى وصل إلى الحجـرة التى كان فـيـها الشـيخ على وجودى ، ونظر إلى وجهـه ووضع رأسه عند قدميـه وصاح قائلاً: أنا لا أتذكر الحكم فأخبرنى به سريعًا حتى أذهب لتنفيذه.

الشيخ : انظر. . لا تفكر الآن، فأنا أعتقـد أن قلبك قد اعتراه سوء الظن ، وأنك قد أضعت كل جهدك هباءً، وعليك أن تتذكر جيداً أن لكل ظاهر باطنا.

حسين : أتذكر جيداً ، ولا أفكر فى ذلك ولو للحظه.

الشيخ : إذن فاذهب واقتل الإمام نجم الدين النيسابورى.

حسين : (بعد أن قوى قلبه) حسنًا ، لكن ماذا لو ذهبت لقتله؟

الشيخ : لا بأس فى ذلـك فسوف تلتـقى بزمرد بلا صعـوبة، لكنى أعلم أنه ربما لا يكون الأمر كذلك.

حسين : أتأذن لى.

الشيخ : قُـم (بعد أن أخرج خنجـراً حاداً) خـذ هذا الخنجر واخـفه معك واستخدمه فى الوقت الذى تسنح فيه الفرصة لذلك.

إنه تخويل من المرشد، وهكذا أخذ حسين الخنجر واتخذ طريقه نحو المشرق ليقضى على أستاذه، ووصـل إلى بغداد بعد شهر ونصف ، وسار من هناك إلى أصفهان ومنها وصل إلى نيسابور بعد شهر ونصف ، وحضر إلى مجلـس درس الإمام نجم الدين وكان قـد خرج من حلب منـذ أربعة أشهر، وقد عرفـه الإمام المذكور فعانقه وعامله بشفـقة ولطف ، وكان قد عَلم من المراسلات المحليـة أن حسين قد رحل بفضيـحة بعد أن اصطحب معه بـنتًا شريفة ، وبعـد أن تذكر هذه الواقعة تأسف وقـال: يا حسين لم أكن أظن أنك تنتهك المحارم بعد تحصيلك للعلم بشوق وشغف.

حسين : يا عمى أنا لم آخذها بنية سيئة ؛ فقد كنت أعزم العقد على زمرد ، وكانت هى فى غـاية الشوق للحج، وكرهت منعهـا بسبب علمى بالدين ؛ فاصطحبتها معى بلا تفكير ورحلت.

الإمام: وأين هى الآن؟

حسين : قُتلت على يد الحوريات فى شعاب جبال طالقان.

الإمام : (بعد أن ابتـسم) ما الفائدة من اختلاق القـصة الباطلة التي لا أساس لها ؟ لن أقتنع بهذا الكلام.

حسين : أنا لاأخـتلق هذه القصة ، وتسـتطيع أن تدرك أنه ليس فى وصفى أى افتعال.

الإمام : حسنًا ، لأى غرض جئت هنا الآن؟

حسين : للمشاركة فى حلقـة درسك ، وقد أردت أن أترك العلائق الدنيوية حزنًا على زمرد ، وأرغب فى أن أكرس بقية حياتى فى تحصيل العلم.

الإمـام : لو كان الأمـر كـذلك، فالله يبـارك رغـبتك ويوفـقك، ولتخلفنى من بعدى على حلقة الدرس هذه.

والخلاصـة أن حسينا انضم إلى المغـترفين من فـيض علم الإمام نجم الدين النيســابورى ، ولأنه كان ابن أخـيـه ؛ لذا زادت مكانتـه فى قلب الشيخ يوما بعد يوم ، لكن حـسيناً كان يبحث عن الفرصة المناسـبة لتنفيذ الأمر ؛ لأن الإمام كان يظل معظم الأوقـات فى جمع من طلبته ومريديه، وقد انقضى على هذا ثلاثة أشهر دون أن يجـد الفرصة لإخراج الخنجر ، وكان قد مر من الشهر الرابع بضعـة أيام عندما أصابة الحمى الإمام فتوقف عن الدرس والتدريس لعدة أيام متصلة ، وقد تفرق أكثر الطلبة هنا وهناك فى زمان هذه العطلـة ، إلا أن حسين قد أبدى سـعادة وحمـاسا زائدا فى تمريض الشيخ ، وظل ليلاً ونهاراً مشغولاً برعايته بأداء هذه الخدمة.

ولما كـان اليـوم السادس من أيام الحـمى التى نزلـت بالإمام ، كـان الشيخ وحيدا فى حجرته ، وفى إحدى الليـالى مصادفة كان معه حسين ، وكان قد انقضى هزيع كبير من اللـيل والإمام ممدد على فراشه يتحدث إليه بصوت واهن ، وكان حسين اليـوم أكثر صمتا خلافـا للعادة بينما كان من المفروض أن تكون أحـاديثه مـفعمـة بالدموية لكن عـدا هذا لم يخرج من لسانه أى لفظ آخر ، وقـد تعجب الإمام لهذا عـدة مرات بل وسأله (ذات مرة) قـائلاً: لماذا أنت صـامت اليوم؟ لكن حـسينا راوغ وقـال "هكذا" ، وظل حسين سـاكتا ثم خرج وأخـذ يستطلع النجوم ليـرى كم انقضى من الليل ، وحين انتصف واطمئن حسين إلى أن أحـداً لن يأتى حتى الصباح تأكد تماما من هذا الأمر فأحكم غلـق باب الغرفة وذهب عند الإمام الشيخ فرأى أن عينه مغـمضة فظل واقفا لفترة من الـوقت ينظر فى وجهه، وكان

قد استبد به الغضب فأخذ يعد العدة للهجوم على أستاذه ومعلمه. لم تكن له دراية على الإطلاق بمثل هذه الأعمال الدموية وضغط على قلبه يريد أن يغريه بارتكاب هذا العمل ، لكن الأفكار كانت تتصارع بداخله حتى فترت همته مرارا وكانت الأقوال الوهمية تتراءى له فى كل جوانب الحجرة حتى تملكه الرعب والفزع ، وبدا كأن ملائكة أو أى نوع آخر من المخلوقات الغيبية تحرس الإمام، وكانت عيون الإمام النوراتين تتشفع له أحيانا وتبدو مفزعة مهيبة تُرعب حسينا أحيانا أخرى ، ولكنه سيطر على كل هذه الأفكار جميعا ، وبعد أن أخرج الخنجر الذى أعطاه له الشيخ على وجودى نظر إلى نصله ، وتشجع فجأة وجثم على صدر الإمام وانتبه الإمام وفتح عينيه وصاح ، لكن حسينا وضع يده اليسرى على فمه بينما نفذ الخنجر فى قلبه.

وفاضت روح الإمام فى لحظات، وسالت الدماء فى أرجاء الحجرة ، وبينما كانت الجثة بلا روح ملوثة بالدماء ملفوفة فى الملابس وملقاة على الفراش ، وكأن الأمر تم فى بساطة شديدة ، ومع هذا فقد ارتعد قلب حسين بشدة فظل مضطربا ينظر فى خوف ورعب إلى جثة الشهيد المظلوم ، وفى النهاية ترك الغرفة على حالها وهو مشدوه من المنظر المخيف وألقى نظرة أخيرة على الحجرة ثم فتح الباب وخرج، وأغلق باب الحجرة من الخارج وخطا خطوات صامته ثم مضى بعيدا ربما لم يستغرق وقتا لكى يبتعد عن خانقاة المدينة وكان يحيط بنيسابور سور قوى محكم تغلق بوابته فى الليل ، ولهذا كان الخروج من المدينة فى ذلك الوقت مستحيلاً ، كنه خاطر بنفسه وخرج فى الظلام الحالك، واتجه نحو الباب وهرب بسرعة ليبتعد عن المدينة قبل أن يدركه الصباح فلا يقوى عليه أحد.

وفى اليوم الثانى حين كان يمضى بسرعة كأنه يطير يقطع الصحراء ويشق الفضاء الغربى لخراسان، كان ضميره يؤنبه قليلاً وتذكر ذنبه وظلمه الذى كان يطل عليه من كل جانب، فيحاول أن يبعد باستمرار عن نفسه فكرة الذنب ، وكانت هذه الجملة تتردد على لسانه بآهة "أنا مذنب كبير" ؛ وظل قلبه يلعنه ، وظل إيمانه يوبخه ، فكان صدى صوت اللعنة واللوم يتردد فى أذنه، وكان كلما انتبه قال "الشيخ على وجودى هو المسئول عن هذا الفعل ، لكنه كان يقول فى نفسه لقد قضيت على الإمام بيدى وأخذه بقسوة قلبى ؛ فكيف تقع المسئولية على شخص آخر، وأوقع ذلك الشك فى قلبه فساوره الشك فى مبادئ الشيخ أيضا ، ورأى أن مكانة المريد فى يد المرشد هى مجرد آلة غير مسئولة ، هى بلا روح وبدأ يقول : "لو أن مسألة علماء الدين هذه صحيحة وهو أن الثواب والعقاب اسمان لتلك اللذة والألم، وهى من نتائج أعمالهم، وتنشأ بنفسها من لوم القلب ومن الضمير الإنسانى فلا يمكن أن يكون عمل إنسان مسئولية إنسان آخر، افرض أننى قمت بعمل ما وهو طيب (جيد) فى رأى أى ناصح أو مشير لكنه فى رأيىَ سيئ يستحق اللوم فسوف يلعننى قلبى على ارتكابه بالضرورة، وعندما عَبر عن ألم تلك اللعنة بالعذاب فى إصلاح الشرع فلاشك أننى لن أنجو من العذاب ومن جهنم، والخلاصة هى أن قلب حسين حدثه بهذا ؛ فأخذ يندم ويتأسف على ما فعل وقد ابتلى بمشكلة دينية شائكة ، ومع هذا فقد ظلت مكانة الشيخ على وجودى عالية فى قلبه وقد رأى العديد من كرامات الشيخ على ولا يمكن أن يسئ الظن بها بل إنه يخاف فى بعض الأحيان ؛ لأن الشيخ يعرف الغيب من أحوال قلوب الآخرين، وسوف يغضب لو عرف شكوكى هذه ، وسأرحل من هنا ومن هناك كذلك ؛ فبعد ارتكاب مثل ذلك الجرم العظيم أظل محروما من وصل زمرد وعندئذ ستتملكنى الحسرة.

اعتمل هذا النوع من الأفكار والتصورات فى قلب حسين فأغرقه فى بحر الندم وتحسر على ما اقترفه من ذنب ودخل مدينة حلب وذهب أمام الشيخ وخر على أقدامه حتى رفعه وضمه إلى صدره ، وقال له فى حماس زائد : يا حسين لقد نجحت فى امتحانك نجاحا منقطع النظير وزمرد الآن فى شوق إليك يفوق شوقك إليها ؛ إن نور الأنوار للأنوار الأزلية انعكس فى قلبك انعكاسا كاملا ، وهذه الحفنة من تراب جسمك جعلت لديك استعدادا وصلاحية تمكنك من تحمل تجليات عالم الأنوار.

حسين : لكن يا سيدى إن هذا الفعل الظالم يثير الريب والشبهات فى قلبى باستمرار.

الشيخ : (بعد أن تملكه الحماس) لاشك أنه سوف يثير ذلك ويمكن فصل الروح عن كثافة هذه المادة بصعوبات جمة، وهذا فقط هو الذى يمكن أن يثير الشبهات والشكوك، وهو المركز الإشراقى ونبع الحياة السرمدية على الرغم من كونه غير حى، وهذه الروح الجسدية المقيدة فى الجسم يمكن أن تتجلى صور عشقها بصعوبة.

حسين : لكن هل مثل هذه الطمأنينة وتوجيه النصائح تزيل الشبهات من القلب.

الشيخ : اسمع يا حسين ، إن القوة هى التى ستبعد شكوكك بشرط أن تشغل نفسك فى محاولة رفعها ، ولكنى أقول لأطمئنك إن اسمها فى الدنيا تكميل النفس وهى ذاتها المشيئة الإلهية إن علاقات الروح منفصلة عن الجسم وتعود الروح على تغيير الأفعال الجسمانية، وهى لا يمكن أن تؤدى أى عمل بدون مساعدة المادة، وهذه الأرواح قد وقعت فى ورطة

الماديات فى الوقت الذى كـانت تغادر فيـه الجسم، وهى فيـما بعـد أيضا توجد فى الظلام الحالك لغبـار مادتها فى كل وقت، وهذا الشىء ذاته هو جهنم فى اصطـلاح الشرع ، وهكذا ينبغى السـعى للنجاة فى الحـياة عن طريق التخـفيف من روابط الروح بالجسم وإن بدايـة هذا السعى تكون بأن يُستخدم الجسم فى ما لا تكون للروح فيه علاقة، فبعد أن تضطرب الروح يجب التوجه ناحـيتها ومنعهـا بالإكراه بقوة الإنسـان وشجـاعته، وهذا هو التعليم الأولى للإلهيات، أما الثانـى - أى التعليم المتوسط - فهو أن تقوم الروح بمثل ذلك العمل الذى لا يكون له عـلاقة بالجسم، ويؤثر فى أرواح الناس فى المدن البـعيـدة، ويجب فـهم علاقـتـهم حيث يطوون الدرجـة الوسطى لعـالم الروحانيـات. وبعد أن تحـصل الروح على الانفصـال عن الجسـم إلى الحد الذى تكون فـيه مـبرأة ومنزهة عن المادة فى البـحث عن انكشـافـات نور الأنوار، وتنزه الملكـوت وعالم الـلاهوت تكون هذه هى الدرجة الثـالثة. أمـا مَنْ يموت فى وقت البحث الأعظم فـإنه يودع الجسم الترابى، وهذه الـنقطة الأولى التى تلتقى بعلة العلل وواجـب الوجود تنال فى ذلك الوقت أعلى الكمال الروحى وهى تحصل عليه عن طريق رفع قيد العالم المادى ، وقد كـان مبتلى بمصائب عالم العناصـر الأربعة (الدنيا) ، والآن فإن حـالتـه هى أنه من ناحيـة حين تظهر لديه هذه الصـلاحيـة من التعليمات المادية للعلاقات الجسدية يـستطيع أن يُشكِّل نفسه كما يشاء أمام هذا العـالم، ومن ناحـيـة أخـرى تصـل إلى هذه الدرجـة من التـجـرد والروحانية الكاملة بحيث يلتقى بالمركز الأول لنور الأنوار وبنقطة الأزل إذا شاء ؛ لهـذا يا حسين فـإنك فى الصف الأول من مـدرسة الروحـانيات، وتتـدرب الآن على هذا الأمر أى تلك الأفـعال والحـركات الصـادرة عن جـوارحك وأعضـائك التى تنسـب إليك، وهذه اللعنة واللوم من جـانب

روحك ونفسك اسمها العلاقة الروحية ، والتى يجب عليك السعى للانفصال عنها وعندما تصل إلى مرحلة معينة ولا تهتم الروح بأى فعل لأعصائك عندئذ تصل إلى الدرجة الثانية للتوحيد.

حسين : إذن لا أكترث بتلك التهم وذلك اللوم والتأنيب الذى يتوارد على قلبى.

الشيخ : لا:مطلقا ؛ لأن تدريبك على هذا الأمر والعناية بنور الأنوار هو أول السلم .

حسين : يا سيدى لماذا تقول نور الأنوار على الله جل وعلا فلا أستطيع فهم رمزه، فرب العزة تعالى بلا شك نور، لكن لماذا الأنوار؟

الشيخ : (بعد أن تملكه الغضب) هو(الله) نقطة الوحدة ونبع التكوين وهو منزه تماما عن هذا،فنحن ننسب إليه صفاتنا المادية وهو هكذا "ليس كمثله شيء" .

حسين : لكن عندما ينسب الله جل شأنه هذه الصفات لنفسه فأنىً لنا أن نفكر ؛ كان الشيخ وجودى لا يزال غاضبا ؛ فنظر إلى حسين وحدق فيه بعينين حمراوتين مشوبتين بالغضب وقال : لاشك أن الإنسان خلق ظلوما جهولا فهذا مالا يدركه خيالك ، ونحن كذلك ننسب إليه تلك الصفات بموجب إرشاده وتوجيهه ونطلق عليه اسم "نور" ، ولكن لأنه منزه فى خيالنا عن النور ؛ لهذا نقول عليه كذلك "الأنوار" .

حسين : هذا صحيح لا ريب وقد اطمئننت الآن وإن شاء الله لن أندم على أفعالى ، ولكنى آمل الآن أن ترينى تلك الجنة حيث جلست "زمرد" متألقة بجوار الأجرام الفلكية.

الشيخ : حسنا . .

بعدها نهض الشيخ وفتح خزانة كتبه وأخرج منها كتابا صغيرا وقلب فى أوراقه وأخرج رسالة وأعطاها لحسين وقال: خذ هذه الرسالة واحتفظ بها تماما واحملها معك عندما تسافر إلى مدينة أصفهان وتذكر أن هناك خارج هذه المدينة مسجدا آيلا للسقوط متهدما ستجد فى هذا المسجد فقيرا يتسول فى الظاهر ، ولكنه فى الباطن صوفى كبير وهو يرتدى جلد خروف طول الوقت ويستجدى من المارة وينادى فى انكسار "من الأفضل أن تضع لقمة فى فم الكلب" واسمه كاظم جنوبى فسلمه هذه الرسالة وإقرئه السلام وسوف يأخذك فى الليل إلى غار تلتقى فيه بأحد كبار العالمين بالأسرار السرمدية، وستبدأ فى ذلك الوقت طى الدرجات للوصول إلى الجنة وفى غضون عدة أيام تعيشها فى هذه الحياة التى هى غالبا مجرد حلم ، وسوف تصل إلى أعلى الدرجات حيث الفردوس الأعلى.

أخذ حسين هذه الرسالة وقبّل يد الشيخ ثم قبّل قدمه مودعا وقام متجها ناحية أصفهان، كان سفره إذ ذاك أكثر اطمئنانا وقد محت خطبة الشيخ على وجودى من قلبه كل أثر للوم أو لندم على الذنب، وتمثلت أمام عينيه حديقة الأمل والرغبة وكأن زمرد أقبلت تريد أن تعانقه.

دخل بغداد وهو فى هذه الحالة من الطمأنينة والسرور وحين وصل أصفهان، ووقف مترددا على باب المسجد خارج المدخل الشمالى، فإذا بهذا الصوت يناديه "من الأفضل أن تسد فم الكلب بلقمة" فأسرع فوراً ودخل المسجد وأخرج رسالة الشيخ ووضعها فى يد "كاظم جنوبى" والذى كان يجلس مرتديا جلد خروف ويصيح فى جلبة وضجيج.

نظر كاظم جنوبى إلى حسين نظرة استعجاب وحيرة وصاح فى لهجة قوية مخيفة "حذار مـن الناس حذار" ، ولكنه عندما قرأ الرسالة قام على الفور وعـانقه، وقـال لم أكن أعرف أنك فـرع من شجـر المعرفـة، تعال اجلس تناول طعـامك واستـرح ، وفى الليل سـآخذك عند شـيخ الجب، حيث اختار غيابة الجب ، ولما كان النهار مظهرا للنور ؛ لهذا تنعكس فوقه أنوار اللاهـوت طوال النهـــار ، ولأن الليل مـظلم ومـــوحش، ونموذج للظلمة، لهذا ينشأ نوع من العلاقة بين الصور المادية فى هذه الظلمة.

حـسين : لكنى لا أعلم هل تفـضل لقـاء المذنبين وذوى الأعـمـال الشريرة كذلك؟

كاظم جنوبى : من المؤكـد أننا سوف نلتقى، فأنت فـرع من شجرة المعرفة.

ظل حسين فى المـسجد طوال النهـار وفى المساء ، وبعـد أن (مر من الليل ثلثه) اصطحبه كاظم جنوبى واتجه ناحيـة منطقة جبلية بعيدة ، وبعد أن طويا مسـافة كبيـرة بين مرتفعات ومـنخفضات، ومـرا على العديد من الممرات الجـبلية توقف كاظم أمام فـتحة غار كـبير ثم صاح بقـوة " شيخ الجب فراشـة تتلألأ فى الظلمـة المادية" ، لكنه لم يتلق الرد فصـاح كاظم جنوبى قـائلاً "أزح السـتـار من على المرآة، أريد أن تنعكس منها تجـليات الأنوار اللاهوتيـة" لم يتلق جـوابا عندئذ صـاح "أسيـر هيكل العناصـر الأربعة ليس لديه صبر للذهاب إلى الخلوة" وفى النداء الثالث جاء صوت مهيب من بين الظلام، وتجاوب صدى الـصوت بين الصخور بداخل الغار "مرحبـا بالشاب الأملى مرحـبا" إن إحدى حوريات الجنة لا تصـبر على فراقك منـذ عامين، وقد رأيتـها أثناء سـفرى اللاهوتى حيـث كانت هذه

الحورية تبكى فى أركان الفردوس الأعلى وتسعى إلى معرفة الطريق إليك ، والآن سوف تحصل على متاع الخلوة من هنا، تعال وشاهد معجزات القدرة.

صاحب هذه الجملة نور بدا من قاع الغار، وقال كاظم جنوبى لحسين : "كفى لا أستطيع التقدم للأمام، ليس لى طاقة على ذلك" .

حسين : لماذا؟

كاظم جنوبى : إن ضياء التجلى يحرق جناحى لو تقدمت قيد أنملة فلو تقدمت خطوة لاحترقت ؛ فاذهب واعلم أنك فرع من شجر المعرفة.

بعد أن سمع حسين هذا ترك "كاظم جنوبى" وهبط إلى الغار، وقلبه متحمس لأن يرى حلم القلب، وهو فاقد لوعيه، وظل لفترة من الوقت يتعثر بالصخور هنا وهناك ، لكنه عندما وصل إلى النهاية التى كان النور ينبعث منها وجد على يمينه سلما فهبط مستخدما هذا السلم، وخلافا لما توقع وجد أمامه بيتا واسعا فخما بين هذه الهضاب المخيفة ومساكن الضوارى والوحوش تضاء كل جوانبه بشموع كافورية ، وكان العود واللبان والأبواب والحوائط مطلية باللون الذهبى وعليها النقوش والزخارف على هيئة بيانات ، وكانت مرصعة بقطع من الزجاج والأحجار الكريمة الملونة انعكست فوقها صورة الشموع المضيئة مما أوجد جوا عجيبا فى كل اتجاه وناحية ، وقد أصيب حسين بالجنون وبهت بعد أن رأى كل مظاهر المتعة هذه، وصاح فى حماس وقد نفذ صبره "هل هذا هو الفردوس الأعلى" فانبعث من مكان قريب صوت فى لهجة ممزوجة بالطمأنينة " ،

لكن هذا هــو المنزل الأول للمـتــنزهين فى الخلوة ، والتى يمـكن أن تكون كفؤاً للبقاء فيها، ويجب ألا تصاب بالذهول فجأة بعد أن ترى متع الجنة.

حسين : لكــن من أنت؟ وأين تكون؟ حتى أحـضر لك وأؤدى لك الشكر.

صوت : أنا قريب منك.

وفجأه جـاء صوت وسحبت السـتائر المزركشة التى كـانت تبدو أنها جدار فـغاب عن النظر بعــد أن سحـبت الستائر، وظهـر رجل طاعن فى السن قوى البنيان تبدو طلعته نورانية بهية متكئ على أريكة مطعمة بخيوط الذهب ، والعـجيب أنه كان يجلس فـى حالة استـغناء وعدم اكـتراث ، وكان وجـهه نـورانيا صـافيـا كالمرآة ، بينمـا كانت الشـموع التى تـتلألأ كالشـمس تلقى بنورها على زجـاج الحائط والباب من جـميع الجـهات ، كانت لحية الشيخ بيضاء كثة تخـدع (الناظر) إليها ، وتبدو كأشعة الشمس أو سجاف مصنوع من خيوط الفضة والذهب.

وعندما رأى حسين هذه الصورة النورانية جرى إليـه كالفراشة، وجثا على قدميه وقال:من فضلك من أنت؟ لعل اسمك رضوان؟

الشـيخ : لا، فـأنا لازلت حـتى الآن فى إطار الجـســد المظلم لكن الحجاب الأول قـد رفع عن عينيك، فأهل الدنيا يطلقـون علىّ اسم "شيخ الجب" بينما أُدعى "طور المعنى" بلغة المتصوفة أهل الحقيقة.

حسين : (فى حـيرة) لعل "طور المعنى" فى الحقيـقة هو نفس النور الذى تجلى لموسى على جبل الطور؟

طور المعنى : لكنك ترى من خلال سبعين ألف حجاب.

حسين : بالله عليك ارفع عنك كل هذه الحجب.

طور المعنى : أنت الآن بعيونك المادية البحتة لست جديرا بهذا، لكن اصبرا وسوف تنال متاع ذلك ، وسترفع كل هذه الحجب.

وفجأة حضر غلام جـميل وأعطى "لطور المعنى" كأسا من الشراب؛ فرفـعه "طور المعنى" بيـده ناحيـة حسين وقال : اشـرب من هذا الكأس وستقتـرب درجة أخرى من الملكوت ؛ فشرب حسين الـكأس فورا وشعر معـها بأن رأسه بدأت تدور، وغـفل بعد أن التصق بطور المعنى وقـد فتح عينيـه عدة مـرات فى نوم الغفلة فكان يجـد نفسه فى كـل مرة فى مكان جديد، فمرة يكون فى مروج خضراء نضرة، ومرة أخرى فى ممرات جبلية وعرة موحشة، وكلما عـاد إلى وعيه لايظهر له ملاك أو إنسان بل نوع من الناس غير العاديين فى هذه الخلوة يؤكدون له قربه من هدفه أكثر فيتأكد له ذلك، وفى النهاية فتح عينه فإذا بشـاب يقف أمامه يرتدى ملابس حريرية بيضاء مطرزة بالذهب، على رأسه تاج ثمين مرصع بجواهر كريمة، وعندما وقعت عينا حسين على هذا الشاب الوسيم الذى كان يرتدى ملابس ملكية ويلبس تاجا على رأسه بدأ يقول له فى لهجة مـتضرعة عاجزة "الآن ليس لى صبر على الانتظار و الأمل".

الشاب : أيها الجسم الترابى لقد طويت مراحل الحيرة، ألا تعلم أنك الآن قـريب من السـمـاء وعلى باب الفـردوس الأعلى، فـلا تضطرب، الملائكة المقربون فى انتظارك والحور العين تتزيّن لك الآن.

حسين : ومن أنت ؟

الشاب : أنا ذلك البرزخ الذى يتوسط اللاهوت والناسوت ، وهذا هو جسمى الذى كان يتحول أحيانا إلى نور يتجلى على طور سيناء وهو نفس النور الذى أظهرته العظمة الإلهية فى جسم المسيح ، وكان يضىء مصباح الحياة فى الموتى وهو ذلك النور الذى يومض فى صدر رسول آخر الزمان من عظمة الإشراق المجرد، وهو نفس ذلك النور الذى يغير أجسام المعصومين بعد أن يضىء مشعل الإمامة.

حسين : فأنت إذن جبريل؟

الشاب : إن جبريل كذلك شمعه صغيرة من تجلياتى.

حسين : لعلك وحى لا تموت؟

الشاب : لست وحيا لا يموت أو حى لا يموت ، لكننى لا أستطيع أن أدعى ذلك مع هذا التشخيص، ومن الضرورى أن أقول: "أنا خالق الأرواح"، "أنا خالق الإصباح"[1] لكننى فى هذا الوقت شكل فى غير ثبات ، يظهر فى شكل إمام يجب على كل مكلف أن يؤمن به.

حسين : (بعد أن ضرب كفا بكف) وأنا أيضا أبايعك بإمامتك وعلى نقطة الوحدة هذه.

الشاب: اسمع يا حسين لقد وصلت إلى هدفك المنشود وطويت درجات الصعود ولعلك تناله قريبا وهو مفتوح لك منذ سنتين، ومع أنه سقطت عنك فرائض العبادات الدنيوية ، لكن ينبغى عليك لكى تخرج من قلبك الأثر الباقى من الدنس الأرضى أن تجلس أمام بوابة الخلوة لتؤدى

(١) هكذا فى الأصل.

طقوس عبادة مختصرة، يجب عليك أن تردد هذه الكلمة فقط على لسانك لمدة ثلاثة أيام ليلا ونهارا.

وهى : "يا مركـز النور أغرقنى فـى بحار أنوارك"[1]. ولكن هناك شرط هو أن تـأكل قليلاً ، ولا يجب ألا ينزل حلقك قطرة مـاء فى تلك الأيام الثلاثة.

وبعـد أن قال الشـاب المتـوج هذا الكلام ترك عـدة أرغفـة ورحل. وبذهابه غُلِّقت فى وقت واحـد جمـيع أبواب المكان فجأة ، وفـى البداية شعـر بالاضطراب بعد أن صار وحـيدا ، لكنه تذكـر على الفور نصيـحة المرشد والإمام الأخير فشغل نفسـه بالرياضة الروحانية والتسبيح وظل يردد تلك الجـملة بشكل مـتواصل، وجـن جنونه فى اليـوم الثالث من جـراء العطش وجف كل حلقه من شـفتيه حتى صـدره ولم يكن يصدر عنه أى صوت سـوى همسات خافـتة ، لكنه لم يمنع لسانه من الأوراد شـوقا إلى زمرد، وكان يدعو بذلك وهو فى هذه الحالة من الاستغناء وإنكار الذات.

وفى اليـوم الثالث كـان لسان حـال حـسين يصيح من العطش فـإذا بالشـاب المتوج الذى يرتدى مـلابس ملكية قـد جاءه وقال لـه: "هيا الآن استعد للسفر إلى الجنة، لقـد أكملت رياضتك وطويت جميع المراحل ولم يتبق أى شىء يقف عـقبة فى هذا الطريق ، لكن حسنا أنت عطـشان بعد قليل سوف تسـتعيد نشـاطك وهمتك" ، ولم تكد هذه العبـارة تخرج من لسان هذا الشاب حتى ظهرت امرأة غاية فى الجمال والحسن، وقد أمسكت فى يدها كـأسـا مرصـعـا بالذهب، وممتلئـا حتى آخـره بنوع خـاص من

(١) هكذا فى الأصل.

الشراب، له لون جـميل فأخـذ هذا الشاب الكأس من يد الحسناء ورفـعه ناحية حـسين ، وقال: " خذ هذا الشراب الطهـور الموجود على الدوام فى الفـردوس الأعلى، وسـوف يزول عنك التـعب والإعـيـاء والعطش وكل الأمور المقـلقة ، وسوف تدخـل الجنة وأنت فى غاية السـعادة الروحـانية والنورانية.

أخذ حسين الكأس بسرعة وأفرغه فـى فمه ، وكان العطش قد اشتد به فزال عنه بجرعتين فقط، وما إن مرت لحظة واحدة حتى بدأ يشعر بثقل فى رأسه صاحبتـه نشوة سكر ؛ فأخذ يغفو وفقد وعـيه تماما حتى لم يعد يدرى ما يدور حوله.

الباب الرابع

الفردوس الأعلى

لم يدر حسين كم قضى من الوقت فى هذه الغفلة، لكن ذهوله بدأ يزول قليلاً ، وبينما بدأت نشوة الغفلة تتلاشى إذا بأنغام جذابة طربة تصل إلى مسامعه، وبدت أمامه كأنها مجموعة أشكال فاتنة ساحرة بمصاحبة المزامير والآلات الموسيقية الغربية والعجيبة تبارك بهذه الترنيمة بأفواهها التى تنبعث منها البهجة وحناجرها النورانية "سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين"[1] فاضطرب وفتح عينيه تلقائيا من فرط سعادته، وحيثما جال نظره وجد هذا المنظر يخيم على كل مكان "فالمعجزة تشد طرف القلب ؛ فالمكان هو هذا المكان"[2] . فى هذا الوقت وجد حسين نفسه يركب سفينة مرصعة بالذهب ، وكانت السفينة قد رست من فورها على شاطئ قناة ضيقة لكنها جذابة بعد أن سحبها صبية أجسامهم رقيقة على درجة كبيرة

(١) هكذا فى الأصل .
(٢) هكذا فى الأصل .

من الجمال ، وكـان الماء الصافى الطاهر يتحرك ليقـبل هذا العشب الناعم البديع، وفى بعض الأماكن تجد الأشجار الكثة الظليلة مثل الضفائر الملتوية المتشـابكة تنحنى على ضفتى قناة ؛ فـتلامس سطح القناة أحيـانا وتغوص بداخلهـا أحيـانا أخرى ، ولكن السـفينة قـدمت على الشاطئ مـن فروج فسيحة ، وبناء على أوامـر الملاّحات الحسناوات نزل من على السفينة وبدأ يتنزه على العشب فزادت حيرته، وبعد أن ترك شريط العشب الضيق الممتد عند الماء بدأت سلسلة الورود المتفـتحة ذوات الألوان البهيجـة الممتدة على مسرحى البصر على ضـفتى النهر، وبالرغم من أن الورود كانت فى حالة من النضارة والألوان الزاهية ، والتى كانت تبـدو فقط من عارض الأزاهير لكن إلى جانب هذا الربيع الطبيعى كـان هناك هذه المتعة أيضا وهى ترتيب وتنسيق الحدائق بعلم وذكاء فوق العادة بل فى غاية الذوق، فبعض صفوف الحدائق يحمل نوعـا واحدا ولونا واحدا من الزهور ، وتبدو كـأنها شعب واحد وملابس رسمية واحدة مقسـمة على معسكرات الجيش المختلفة وتمتد حتى حدود الرؤية، لكن معظم الحدائق التى تم فيها تنسيق الزهور مختلفة الألوان بها زخارف على الأرض يتحيـر لها العقل الإنسانى، فكل الروضة وكل الوادى الذى يمتد لأمـيال بعيـدة فى جمال مـتناسق وتتحلق حـولها الجبـال الخضـراء النضرة ؛ فكـانت تلك الرياض ممتلئة بالأزاهيـر فى كل جوانبها، وكانت الأنهار المختلفة تنزل من الجبال بعد أن تتكون صفائح الماء من خلال الشـلالات فتنسـاب من بين الأزاهير والرياض ، وسـواء كانت ميـاهها مشبـعة بشذا الورود أو بسـبب آخر كانت تنبت شجـيرات الورود والرياحين ، وكـان لسـان حـال هذه الأنهـار يصـيح ويقـول نحن تسنيم وسلسبيل، أما الطرق والممرات فقد ظهـر إعجاز فى إعدادها وترتيبها على ذلك النحو ؛ بحيث يكون هناك نهر صـاف فى أحد جوانب كل روضة ،

وفى الجانب الثانى شارع صغير رائع يعانقه ؛ فكان هذا الشارع يظهر كمال الصنع أكثر من الروضة ، وقد استخدم فى تمهيد تلك الشوارع والطرقات مختلف أنواع الحصى والحجارة والألوان ، وقد رصف كل شارع بلون خاص من الحجارة الكريمة فُرِشَ أحد الشوارع الفيروز والآخر بالزمرد والثالث من الياقوت والرابع من أحجار النيلم ، وكان هناك نوع من الجمال فى التنسيق بحيث يبدو تناسب وانسجام بين لون أزهار الروضة والشارع الضيق الأنيق الذى يمر بجوارها والطيور المغردة الصداحة تطير وتنتشر فى أرجاء تلك الرياض وتحط قرب الورود تحكى قصص الحب والعشق ، ويعلم الله على يد أى أستاذ بارع تعلمت، كما أن أكثر الذاهبين والغادين فى النواحى الأخرى يسمعون نشيد الترحيب من حناجر الحور النورانية ، وهناك جوقة طيور صداحة تردد كلمة الترحيب هذه على أرغونها الطبيعى: "سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين"[1].

وقد تعجب حسين وازدادت دهشته عندما رأى أسرةً ذهبية وفضية منتشرة فى كل مكان على شواطئ الأنهار فى تلك الحدائق وعليها فُرش من الحرير المشجر بالورود ، بينما الناس يسندون ظهورهم على أرائك كبيرة والفتيات الصغيرات الفاتنات يجلسن فى ركن من الأركان يستمتعون بالجنة فى طمأنينة.

فى أحد الأماكن يقف أمامنا فتية غاية فى الجمال والحسن ينتشرون فى كل مكان يقومون بأعمال السقاية بحركات غاية فى الرقة واللطافة، والشراب يدور، وللنشوة والمتعة كانت الطيور المدربة تقطف الفواكه من

(١) هكذا فى الأصل .

الأشجار المثمرة تحضرها وتضعها أمامهم وتطير، وكانت المتعة الكاملة بالشراب والمحبوب متوفرة لهؤلاء الناس، وكان أكثر ما أثار انتباه حسين هو أن كل الناس يستمتعون بتلك اللذات باطمئنان ودعة، بلا تعب أو نصب ولا يدرى الواحد منهم أيضا من يمر بالقرب منه ولا إلى من ينظر فلا أحد يحسد أحد ، ولا أحد يخفى سعادته عن أحد: الجنة هناك حيث لا تعب ولا أذى حيث لا يكون لأحد شأن بالآخر تولد الحماس فى قلب حسين بعد أن رأى هذا العالم فصاح بصوت عال: لا شك أن هذا هو الفردوس الأعلى، هو بعينه، وهنا يأتى المؤمنون والصالحون لكى ينالوا جزاء أعمالهم الطيبة، لكن واآسفاه أين أنت يا زمرد؟ ولم يكد ينته من هذه الجملة حتى قال شخص ما بصوت جذاب صدر من ناحية الورود بالقرب من الروضة "أنت الآن تراها فى رياض الجنة فارفع ناظريك قليلا وانظر فى القصور والمنازل" .

لم يكد يسمع هذا الصوت من ناحية حتى ظهرت أمامه حسناء فاتنة رقيقة الجسد، حنت رأسها وابتسمت وقالت "أنا أيضا لك" فاستحى حسين قليلاً وابتعد عنها، وبعد أن نظر إلى وجهها بتمعن قال : "لكننى لا أريد غير حبيبتى زمرد" .

الحسناء : سوف تجدها أيضا ؛ إن كأس سعادتك ضيق، فانظر قليلاً إلى تلك المباهج والمسرات ومن ثم ستلتقى بها، انظر إلى قصر اللؤلؤ الذى أمامك حيث تقيم زمرد، إنه لك.

رفع حسين نظره فشاهد القصر المنيف، ووقعت عيناه على القصور الأخرى أيضا فرأى أن هذه القصور أكثر فخامة وبهجة من الحدائق ؛ فبعضها يبدو من الذهب الخالص وبعضها من المرجان وبعضها من اللؤلؤ

ويطلقـون عليها جـميـعا بكلمـة " كشك " و " قـصر " و " محـل " حسب اهميتها من بين هذه القصور قـصر من الفيروز وآخر من الزمرد وثالث من الياقوت ورابع من الماس، وكان قصر اللـؤلؤ بلونه الأزرق مخصصا لحسين باللون ، ويظهر أنه مطعم باللؤلؤ من أسفل إلى أعلى كـما رُصعت أجزاء منه بقطع من الصدف الأصلى المتـلألئ، وعلاوة على لون جميـع القصور الذى يشير إلى القـصر المذكور ؛ فإن جميع الأبواب والحـوائط قد حُشيت إطاراتها بقطع من الزجـاج والبلور ، وكانت هذه المرايا تتـلألأ بقدر هائل فى ضوء آلاف الشموع الكافورية ليلاً ، وفى نور الشمس نهارا.

بالإضافه إلى هذا رصعت تلك الحوائط من الداخل والخارج بالجواهر فكانت أشعتهـا المتلألئة تخلق جوا عجيبـا من السرور؛ على كل حال فإن مجموعة القصور الملونة الذهبية والفضية ومراياها قد نشرت نورا فى جميع الجوانب الأربعـة؛ بحيث لو وقع النظر عليها يتـولد الحماس والحمـية فى قلب الإنسان. بعد أن رأى حسين تلك القصور ظل واقفا مبهوتا لفترة من الوقت لكن عقله اتجـه ناحية هذا القـصر الخاص الذى كان قـد سمع من الحورية أنه خاص به، والذى كان يأمل أن يلتق فيه حـبيبته زمرد ، عندئذ اتجهت عواطفه القلبـية بقوة نحو زمرد فلم يعد يرى السعـادة فى أى متعة ولا ينظر ناحية أى شىء قط فوصل مبـاشرة إلى بوابة هذا القصر، وكانت زمرد قـد خرجت من القصر لاستقبـاله أيضا، كان نظرها غيـر عادى ، لكنها فى شكل أخاذ جذاب كانت تقف مكشوفة الشـعر جدائلها مسترسلة على الظهر والأكـتاف تلاقت ، وتواجهت العـيون، وفى حمـاس تلقائى نطق كل منها باسم الآخر وأسرعا يتعانقـان ، وكان حسين فى سعادة غامرة ، وكان وجه زمـرد ينطق بالبشر والسـعادة غير العادية، وانخـرط حسين فى

البكاء تلقائيا من فـرط حبه، ورأته زمرد يبكى من نفسه فـانتحت به جانبا وقالت : " يا حسين البكاء هنا حرام فجفف دموعك الآن" .

حـسين : (بعـد أن جفف دمـوعـه) هل هذا هو الفـردوس الأعلى يازمرد؟

زمرد : هو بعينه.

حسين : لقد جئت إلى هنا وتركتينى فى ذلك الألـم والعناء.

زمرد : لم يكن الأمر باختيارى، لقـد جئ بى إلى هنا فى استشهاد مفاجئ، لكنك بقيت على قيد الحياة ، وكان ضروريا أن تأتى إلى هنا بعد أن تطوى ما طويت من مراحل ودرجات، لـكننى أقول لك صادقة إنه لم يقر لى قرار فى هذه الجنة بسبب فراقك، فماذا أقول؟ عن الصعوبات التى واجهتنى لكى أحصل على إذن لأخبرك بكيفية المجيء عندى.

حسين : لقد كانت مـثل تلك الأعمال التى ربما لا يستطيع أن أصل بها إلى هنا بالموت ، ولكن حبك فقط كان هو الذى أحضرنى على طريقة الخضر.

زمرد : حبى.

حسين : نعم حبك.

زمرد : لكنى ماذا عساى أن أفعل لو لـم يكن فى قلبك صدق الطلب؟

حسين : لكننـى بهذا الطلب تمكنت من الوصـول إلى هذا الفردوس الأعلى ، وقد عقدت العزم على أن أكون عـند هذا القبر وأمام هذا الحجر المحفور عليه اسمك المحبب حتى ألفظ أنفاسى.

زمرد : حسنـا ، هذه أمور تحدث وستحـدث، فادخل الآن واجلس بهدوء واشرب كأسين من الشراب الطهور ، وانظر كيف أن الله - جل وعلا - قد هيأ لى سبل الراحة والمتعة ، بعدها أخذت زمرد حسين إلى الداخل.

كان الوقت الذى نزل فيـه حسين من السفينة على شـاطئ النهر بداية المساء ، والآن حلّ الليل، فـأضاءت الشموع الكافوريـة كل جانب، وكان هناك قسم خـاص من النور البارد لا يعرف من أين ينبعث وكـيف يتولد، أما فتـحات ضوء السقف والنوافـذ العالية والبوابات فكانـت تتلألأ ويبدو منها آلاف الأقمار قد أُطلق سراحـها فجأة ، وفى هذا النور الساطع تسقط الشموع فـيها ، وكان الحـبيبان فى لقـاء حميم ينظر كل منهـما إلى وجه الآخر نظرة حب وانجذاب، ورأى حسين فى حيرة هذا النور الغيبى وأدرك كنها ؛ فكان يخرج مرارا من الباب، ويسـترق النظر، لكنه لـم يستدل على شيء، كل ما عرفه هو أن مركز هذا النور ومـصدره قمم الجبال المحيطة به ؛ حيث ينبعث الضوء ويتلألأ أكثر فـتنبعث أشعته من هناك لتنير كل مكان، ورأى الضــوء يسطع بشكــل كامـل ، ويصل إلى ذروته ، وســمع أناســا يتصايحــون من كل جانب قائلين هذه العبـارة "هذا الذى وعدنى ربى"[(١)] ترددت هذه العـبارة ؛ ترددت عـلى لسان حـسين عـدة مرات كـذلك مع أولئك الناس فى حـماس غيـر إرادى، وعندما لم يستطـع حسين أن يحل لغز هذا النور سأل زمرد قائلاً: "ما هذا النور؟" .

قالت زمرد : ألا تعلم أنه هو النور الإلهى الذى كان قد تجلى لموسى فى الوادى الأيمن ، وقد قرأت فى القرآن والحديث أن الله ربما يتجلى فى الجنة ، وهذا نور من الله.

(١) هكذا فى الأصل .

حسين : إذن ، هذا هو الله جل وعلا؟

زمرد : لا أستطيع أن أقـول هذا ، ولكنها إرهاصه . . أولى وهى أكمل وأصدق صورة له.

بعد أن سمع حسين هذا الرد خر ساجدا أمام هذا النور ، لكن زمرد أنهضتـه وقالت: "أنت غير مكلف بالعبـادة هنا، فلا هدف من هذا النور سوى إدخال ينشأ الطمأنينة والسرور فى قلوب الناس.

الآن وقد رأى حسين فرش القصر وجميع الكماليات، تأكد له أن كل هذا المتاع نورانى، ولا يـخطر على قلب بشر فى الدنيـا ولايمكن لأحد أن يقدر ذلك ثم أشـارت زمرد بيدها قـائلة هنا ترى جميع الأشـياء العجيـبة تدور، وقد اعـترف حسين وآمن من كل قلبـه بحماس برحمـة الخالق ذى الجلال والإكرام وقدرته على كل شىء ، وفى نـهاية الجولة منع من دخول أحد الأماكن فعـانق زمرد بعاطفة ملتهبة وقـال: مع جميع هذه المتع وكل هذا السرور والهناء إلا أن زمرد بالنسبة لى لا تعادلها نعمة.

زمرد : إن هذا الحب قد أتى بك إلى هنا ؛ لأن هذا المكان لا يمر به أى إنسان حى إلا نادرا ، وهذه هى فـضيلتك الكبرى ؛ فـقد وصلت إلى أرض النور بالرغم من هذا الجسد الترابى.

تجول حسين فى الجنة وتمتع بحسن زمرد وبجمالها ، وقضى على هذا الحال أسبوعا يستمع إلى أصوات النغمات الحالمة المنعشة للقلب التى كانت تدوى وتهدر فى كثير من الآذان، وكان الكـثير من الحوريات يحضرن فى خدمته، لكنه كان زاهدا فى جمـيع الحوريات الجميلات ، ولـم تكن له أى علاقة بأحد غير زمرد، فكان يتأبط زمرد كل الوقت يتجولان معا ويتنزهان

فى تلك الروابى المنعشة والأودية الخلابة الساحرة، وقد ظلت زمرد تتجول معه وتتنزه حينا من الدهر حتى جعلته يشاهد جميع المتنزهات والأماكن الخلابة هناك ، وقال حسين ذات مرة: لقد سمعت يا زمرد أن الوقت فى الجنة دائما هو وقت الصبح ، لكننى عندما جئت إلى هنا رأيت أن التغيرات الدنيوية موجودة هنا أيضا.

زمرد : لقد أخطأ الناس فى فهم هذا الأمر، فما يقال أن كل وقت يظل كوقت الصباح هنا ليس معناه أن الإنسان هنا لا يمكنه أن يستمتع بأى وقت آخر، كذلك فإن الهدف الأصلى من الاستمتاع الكامل بالجنة هو أنك لابد أن تجد مثل ذلك المكان هنا فى كل وقت حيث يتمتع الإنسان وقتما أراد.

حسين : كيف؟

زمرد : هذا الأمر لا يتضح مشافهة، فهيا نمشى لتراه بعينيك، واصطحبته معها بعد أن قالت ذلك ، وخرجت من القصر الدرى قائلة : انظر هنا فالجو يبدو مثل الظهيرة، (ولنتقدم الآن قليلاً) وبعد فترة وجيزة وصلا إلى دوحة كثيفة من الأشجار الخضراء اليانعة التى تمنع أشعة الشمس من الوصول ، وكان الظلام يخيم على كل مكان إلا من ضوء خافت بازغ هناك من الجبل الذى يطل على القلاع الشرقية، وبعد أن وصلت زمرد هناك قالت: انظر فهذا هو وقت الصباح.

حسين : لا شك فى ذلك.

زمرد : تقدم إذن.

وبعد أن غادرا ذلك المكان بفترة وجيزة وصلا إلى واد صغير تحيط به الجبال من كل جانب بين الأشجار تبدو ظلمة غير دامسةٍ وعلى مسافة

قصيـرة منها يتصـاعد دخان خفـيف من فوق القصور ، وكـانت المصابيح مضـاءة فى بعض الأماكن ، ويعلو صـوت تغريد الطيـور ، وتبدو أشبـعة غـروب الشـمس على القلعـة من ناحـية الغـرب ، وهنا توقـفت زمـرد قائلة: "وهكذا يكون وقت المغيب" .

حسين : لا يمكن الشك فى هذا.

زمرد : لقـد شاهدت وقت النـهار ، ورأيت المساء كـذلك ، ولم يتبق غير رؤية وقت الليل فهيا بنا لأريه لك.

بعد أن عادا من هناك أخذت زمـرد حسين ودخلت فى غار فى أحد الجبال به طريق منخفض ممهد فى غـاية الجمال، ولم يكن به سلم بل جزء الأرض المرصوف والملون يهبط لأسفل لحظة بلحظة ، وكانت هذه الأرض تتشعب فى طريقين ، وفى النهاية وصل الاثنان إلى منطقـة مليئة بالفخامة والتنعم حـيث كانـت أضواء الشـموع الكافـورية تملأ المكان ، والثـريات والمصابيح الكثـيرة مدلاة ومعلقـة ، وكانت هناك قطع ذات ألوان مخـتلفة من الزجاج على الأبواب والحـوائط ، وكانت ذوائب تلك الشمـوع تتلألأ بنور عجيب لا مثيل له يستلب النظر.

زمرد : انظر هذا هو الليل ، وكم هو ليل محبب.

حسين : حبيبتى زمرد مادمت معى فكل شىء محبب.

وبعد أن رأيا كل هذه المتعة عاد إلى قصرهما ، وبدآ يتحدثان معا فى أمـور الحب وإن بدت زمرد فى الـبداية حـزينة بعض الشىء، وكـان هذا الحزن واضحا على وجهها وإن كـانت تحاول جاهدة أن ترسم على وجهها البشاشة رغم ما بقلبها من حزن.

وأدرك حسين هذا الأمر مندهشا فقال: يا زمرد تبدين اليوم حزينة أيضا رغم وجودك في هذا الفردوس الأعلى.

زمرد : لا . . لكننى قد أكتشب شثت أم أبيت عندما أتذكر من آن لآخر المفارقات السابقة.

حسين : لكن الله قد صرف عنا هذه المصيبة ، وآمل الآن أن نكون هكذا دائما ويستمتع كل منا بوصال الآخر.

زمرد : هكذا إرادة الله ، لكننى لا أرغب فيها يا حسين.

حسين : (بدهشة) لا ترغبى، هذه هى الجنة التى تكون فيها المتعة الأبدية السرمدية ، وهنا لا يمكن للمرء أن يفكر فى العداء، ولايحسد أحد فما هو سبب اليأس والقنوط، "لا تقنطوا من رحمة الله"[1].

زمرد : لا شك فى ذلك، ولكنك يا حسين جئت إلى هنا قبل الأوان وأولئك الناس الذين جاءوا للمتعة الأبدية السرمدية سيأتون بعد الموت بعد قطع علاقتهم بالدنيا ؛ فأنت حتى الآن لم تقطع صلتك بهذه الدنيا المادية وأحضرت معك هذا الجسم المادى ، والذى من أجله لابد لك من العودة إلى ذلك العالم للتركه هناك فى عالم الدنيا، فانظر لقد جاء السيد المسيح إلى هنا حيا، ومازال كذلك لكنه لم يتمتع بأى متعة كاملة، ولهذا ندرك أن عليك العودة إلى الدنيا ذات مرة لترك هذا الجسد، ففى حقيقة الأمر لا يمكن للمادة الكثيفة أن تبقى فى موطن هذا النور.

حسين : واآسفاه! متى سأذهب؟

(١) هكذا فى الأصل.

زمرد : عندما يصدر الأمر ، لكننى أعلم أن ذهابك سيكون قريبا ، ولهذا فسوف يستدعونك لعدة حاجات ملحة هناك، دمعت عينا حسين بعد أن سمع هذا، وزفر آهة باردة من قلب ملىء بالحرقة وقال: "انتهى الربيع ولم نشبع من وجه الوردة"[1].

فأنا الآن لم أحصل على متعة وصالك ، ولكنك يا زمرد لن ترحلى معى، ومن الآن سوف أضع يدى فى يدك دائما فلا يفرقنى عنك أحد أبدا.

دمعت عينا زمرد بعد أن سمعت هذا الكلام وقالت : يا حسين هذا الأمر خارج عن نطاق قدرتك ؛ فحينما يحين الوقت لن يكون لديك علم به ، وسيأخذونك إلى عالمك فى طرفة عين.

حسين : (بعد أن بكى) إننى لن أتحمل مصيبة فراقك ، وسوف أقتل نفسى ولن تمر ساعة واحدة إلا وقد وصلت عندك.

زمرد : لا تغضب إلى هذا الحد، فلو انتحرت ستحرم عليك الجنة ، ومن ثم لن يكون هناك أمل فى لقائك حتى يوم القيامة.

حسين : (بعد أن ضرب بيده على صدره بقوة): لماذا إذن سأبقى حيا؟

بالله عليك يا زمرد أخبرينى بحيلة وإلا سوف أعجز عن الفهم إلى الأبد؛ لأننى بعد أن أذهب إلى الدنيا لن أستطيع الحياة، فهناك آلاف الموانع ، وسوف أغرس خنجرى فى صدرى ؛ حسنا. . إن لم يكن الأمر كذلك فامش معى.

(١) شطر من بيت شعر .

زمرد : هذا مستحيل بأى حال من الأحوال، ألا تدرك ياحسين أن لا حول لى ولا قوة، بدأت تضطرب بينما تنطق بتلك الكلمات ، ونهضت ونظرت هنا وهناك خشية أن يسمعها أحد ، وعندما لم يظهر لها أحد اطمأنت وجلست، وقالت: يا حسين هل من فائدة من هذه الأحاديث الآن ، لقد حان وقت عودتك.

صاح حسين: (صاح بعد أن نفذ صبره): ماذا الآن!! لن أذهب الآن، ثم أمسك بيدى زمرد وتشبث بهما.

زمرد : لا فائدة من هذه الأفعال، لأنك ستزداد سوءا بقدر ما تبدى من عدم تحملك، لقد سنحت لنا الفرصة للحوار منفردين، فاغتنم الوقت واستمع لما أقوله ؛ لأنه لو جاء أحد فسوف تفلت هذه الفرصة من أيدينا ونظل طول العمر نتأسف حسرة عليها ، وستتخبط فى أنحاء الدنيا ، ولن نصل إلى هدفنا.

حسين : (بعد أن تماسك وتحامل على نفسه) أسمعك جيدا، حبيبتى زمرد أخبرينى عن حيلة لكى أتصرف على أساسها، ولم يكد يكمل هذه الجملة حتى اغرورقت عيناه بالدموع ؛ وبدأ فى النحيب والعويل. فقالت زمرد: (بعد أن وضعت يدها الرقيقة على فمه) هل تضايقت؟ بالله عليك تماسك وابك بعد أن تعود إلى الدنيا فلدى أمر هام أريد أن تسمعه بعد أن تسترد كامل وعيك و تستعيد حواسك.

حسين : (لم تفلح محاولة منعه من البكاء): أخبرينى يا حبيبتى زمرد ، فأنا أستمع إليك بقلبى وروحى.

زمرد : بعد رحيلك من هنا عليك أن تعمل جاهدا مع أولئك الناس الذين ساعدوك فى المجىء هذه المرة ؛ لأنك بطاعتك لهم تنال رضاهم

عندها تحين لك الفرصة للمجيء هنا مرة أخرى، فمن أجل هذا ولكى تحقق رغبتك لا ترفض لهم أمرا ، وإذا لم يعدوا بإرسالك إلى هنا ثانية وضاقت عليك السبل فلتعد أدراجك إلى ذلك الوادى ولتقم هناك عند قبرى حتى أرسل لك رسالة أخبرك فيها بحيلة أخرى للمجيء إلى هنا.

حسين : جبل طالقان؟!!

زمرد : نعم هناك ؛ فلو أنك أقمت هناك شهرا فسأخبرك بحيلة، وحذار أن تخبر أحدا.

حسين : لكن يا حبيبتى زمرد لماذا لا تخبرينى الآن بهذه الحيلة لكى أبدأ تنفيذها ؟

زمرد : للأسف لم تستطع أن تفهم، فما عليك إلا أن تفعل ما أخبرتك به ، ولن أخبرك بهذه الحيلة الآن.

حسين : انظرى كم من الأيام همت فيها على وجهى؟!.

زمرد : اصبر واعمل بقوة وتفان ، وحذار أن تكشف هذا الضعف والجبن حتى لو أزمعت على الانتحار.

حسين : أنا أخشى من هذا يا حبيبتى زمرد إن حبك يجعلنى أحيانا أفقد الوعى فلا أميز بين الخير والشر، لقد قتلت عمى الشيخ نجم الدين نيسابورى من أجلك.

زمرد : أعلم ذلك لكن لا تشركنى فيه(بعد أن سمعت وقع أقدام) قالت: اصمت الآن.

وفجأة حضـر نحو سبع حوريات فى جمال ودلال، وتقـدمن إليهما ويدأن فى مخاطبـة حسين فى نغمة عذبة: هيـا بنا نخرج الآن لنتنزه لترى منظر الأرائك النورانية الواقعة فى الجـنان ؛ فهذا الوقت جدير برؤية الربيع ، كما أن للشراب الطهور مذاقا خاصا فى الكئوس.

حسين : إننى أفضل البقاء هنا وحيدا.

زمرد : ما الحرج فى ذهابك هناك، امضِ وسأرافقك أيضا.

حسين : نـعم لو يرضيك ذلك فـبماذا أتعـلل وتمثل قول الشـاعر: (ألقى الحبيب بأغلاله حول رقبتى، وسوف ينزعها حينما يريد)

أمشى. . . وبعد فتـرة قصيرة جاءت بقية الحـوريات بينما اصطحبت زمرد حسين إلى خارج القصر الزمـرد، وذهبن جميعا وجلسن على الأسرَّة الذهبيـة وسط الروضة حيث يوجد حـوضان من المياه على جـانبى السرير وتأكدت لحسين الحـقائق بلا كلام، فالحـوض الأول هو الكوثر، والحوض الثانى به الشـراب الطهور، جلست بعض الحوريات أمـامه بدأن فى الغناء وعلى شـفاههن طرب وأثر عـجيب ، بينمـا كان بعض الغلـمان يقـفون بالأباريق والكئوس الـذهبية وهم يدورون بمصـاحبة الألحـان والغناء،وبعد عدة كئوس غاب حسين عن وعيه، وتبدت له حقيقة الأمر وبينما كان يرى بعينه الـناعسة الفـاقدة الوعى ذلك العـالم النورانى تراءت له زمرد تعـانقه بإحدى يديها وتسقيه فى فـمه من الكأس المملوءة باليد الأخرى، وقد تمتع حسين متعة كاملة بهذه الصـحبة اللطيفة، لقد شرب من الكأس ثم بدا له كمـا لو أن الدموع كـانت تتقطر من عين زمـرد مثل اللؤلؤ ؛ فـقال دون وعى: يا حبيبـتى الجميلة هونى على نفسك، ولا تكثرى ثم سقط مـغشيا عليه ، وبعد ذلك لم يدر شيئا مما كان يدور حوله.

الباب الخامس

العودة إلى الدنيا مرة أخرى

بعد وقت قصير من فقدان الوعي والغفلة بدأ حسين يسترد وعيه قليلاً، ووصل إلى مسامعه صوت يقول: "أيها الجسد الترابي انهض وقبِّل يد البرزخ الأكبر الذى هو أمامك ؛ فهذا هو قد اختار الشكل المادى المحض المجرد من أجلك أنت فقط"، فتح حسين عينيه بلاتكلف أو عناء فوجد أمامه بدلاً من الجنة وجوار زمرد ذلك الشخص المتوج بنفسه، الذى كان قد بايع على يديه وقد لقيه فى المنزل الأخير من رحلته إلى الفردوس الأعلى، فرك حسين عينيه ونهض ثم جلس تأدبا وخر على قدميه وبدأ يقول: "اللهم لا توقظنى من هذا الحلم".

فقال رجلٌ: لا ينبغى عليك الذهاب إلى العالم الأرضى، وحاذر إذ لا يجب الهروب مطلقا من شيوخ الباطن، هاهى يدى فيها إلى جانب النور جزء مادى قليل جداً وقد تلاقت بيديك وستظل دائماً فى يد أولئك الناس الذين عن طريقهم تصل إلى هذا الملأ الأعلى.

حسين : لكننى الآن أريد البقاء فى الجنة عدة أيام أُخر.

شخص : لا يمكـن لـك العيش فى هـذا العـالم المادي لكن يمكن لك ذلك فى تلك الدار الروحانيـة فاذهب ، وعليك أن تنتظر وقتـا تحاول فيه مرة أخرى أن تشرب من كأس الفناء بأمر من المرشد والإمام.

حـسين : أنت إمـامـى، فـاسـقنى من كـأس الفنـاء وأوصلنى إلى الفردوس الأعلى.

شـخص : الآن نحن على حدود الملأ الأعـلى وليس هنا فناء، وفى تلك الأثناء جاءت نفس الحورية الحسناء التى أخذ من يدها الكأس المملوءة من قبل ، وما إن رآها هذا الرجـل حتى قال: كفاك الآن ولا تتـعلل أكثر واحتس هذا الكأس الأخير من الشـراب الطهور، ثم رفع الكأس بيده إلى حسين.

لقـد أدرك حسين الآن أن هذا الشـراب الطهـور شراب لا يتـرك أثر السُكر عليه، وكمـا أن نشوته كانت قد سمـت به فى بداية أمره إلى عالم النور ، وسوف تنزل به الآن إلى حضيض الظلام، إلا أن مـشقة اليأس قد ضاعفت عطشه حـتى جعلته لا يتجرأ على الرفض فـأخذه وشربه بهدوء، وبعد فـترة وجيـزة فتح عيـنيه فبـدأ يتراءى له منظر مخـتلف أمام عـينيه الحائرتين ؛ إذ كان أمامه صحراء أحيانا، وجـبالاً عالية ومنخفضة أحيانا، وفى النهاية وفى ليلة من الليـالى فتح عينيه فإذا بشـيخ الجب أمامه، وفى أول نظرة له ربت بيده على كتفه وقال: "يا حسين لقد عُدت مرة ثانية إلى دائرة الجسد المظلم وقد رأيت بهاتـين العينين الأنوار المحضة والمجردة، وها أنت الآن ترى نور سيناء هكذا من خلال سبعين حجابا" .

فقـال حسـين (بعيـون دامعـة): لكنى لم أكن أريد المجىء إلى هذه الظلمة الترابية.

طور المعنى : لا شك أنك لا تريد، وأن عواطف نور الوحدة تجذبك هكذا إليها، لكن كيف يمكن لهذا الجسم الترابى المعيب أن يقيم دائما فى موطن النور هذا.

حسين : بالله عليك حاول أن تأخذنى إلى ذلك الملأ الأعلى بعد التخلص من هذا الجسم الترابى.

طور المعنى : إن الشيخ على وجودى يمكن له أن يطمئنك فى هذه الأمور فاذهب إليه وافعل ما يأمرك به.

حسين : (بعد البكاء والنواح ويقلب متحمس) واأسفاه!! أبعد رياضتى هذه وبعد أوقات طويلة من الأمل لا أنال غير هذه المدة الوجيزة! فماذا أفعل حتى يكون وصل زمرد من نصيبى مرة أخرى؟!

وبعد هذا بدأ حسين يجهش بالبكاء والعويل حتى وصل ببكائه إلى النحيب.

طور المعنى : يا حفنة التراب العالية الهمة إنك بعد أن تخرج من خلوتى وتذهب إلى صفحة الوجود وتكمل هذا الأجل المعدود ستكون حبيسا فى هذه الأرض المظلمة لبضعة أيام.

حسين : (فى حيرة من أمره) يا ليت "حفنة التراب" هذا يدرك إلى متى سيظل حائرا هائما على وجهه فى هذا العالم.

طور المعنى : إن حل تلك الرموز بالنسبة لك هو من عمل الشيخ على وجودى ؛ لأنه مرشدك، لكننى أريد أن أخبرك بسر وهو أن زيارتك لعالم النور ثانية ستكون برغبة هذا الإمام فقط، وهو الذى بايعت على

يديه وهو البرزخ اللاهوت والناسوت ، وهـو ذلك التجلى الذى يظهر فى الإمامة والنبوة بأشكال مختلفة.

حسـين : ولكن كيف الوصـول إلى ذلك؟ ولماذا أُرمى فى قعـر الظلمة هذا بعد أن كنت فى الملأ الأعلى.

طور المعنى : مع أن مكـانه المحدد هـو فى أرض النور الأعلى ، إلا أنه بسبب هذا النوع من العـلاقات البسيطة يغيـر كثيرا من مـلامح الإمامة وينجذب إلى أرض العناصر هذه فى كـثير من الأوقات ، ولكنك لا يمكن أن تنال النجاح فى قـصدك هذا بدون مرشد، لو أصـررت على ذلك فإن مرشـدك الشيخ على وجودى سـوف يساعدك فى هذا الأمـر، فقط عليك الآن أن تترك خلوة النور هذه ، ولتذهب لكى تُقَّـبل قدمى مرشدك ؛ إننى لآمل بهذه المقولة أن أضئ المصباح المـظلم فى صدرك مرة ثانية ؛ حيث إن نوره سيـخرجك من ذلك الغـار ، إلا أن حيرته لم تنـته بعد ؛ فـقد رأى كاظم جنوبى واقفا على مـدخل الغار (الجب) فى هذا الوضع وهذه الحالة التى كـان قد تركـه عليهـا، وعندما رآه كـاظم جنوبى قال: "لعلـك قد اطمأننت إلى أنك أيضا فرع من شجر المعرفة.

حسين : متى جئت إلى هنا؟

كاظم جنوبى: الآن.. جئت معك.

حسين : الآن!

كاظم جنوبى: نعم الآن.

حسين : لقد مرّت عدة أسابيع منذ أن ودعتك.

كاظـم جنوبى: (مبـتسـما) هناك فـرق كبـير بين هذا العـالم وذلك العالم، فاليوم هنا يعادل سبعين سنة.

حسين : لعلها ساعة واحدة، ولكن لماذا تقف هنا؟

كاظم جنوبى: كان هذا بأمر الإمام قائم القيامة.

حسين : من هو الإمام قائم القيامة؟

كـاظم جنوبى: هو نفـسه الذى بايـعت على يده فى سـفرك لعـالم النور.

حسين : لكن كيف تصل أوامره إليك؟

كاظم جنوبى: بوسـاطة ذلك المرشد ، وأنا واسطة بينهـما من أجل طى طريق الحقيقة.

حسين : لعل مرشدك سيأتى إلى هنا؟

كـاظم جنوبى: لا حـاجة له فى ذلك ؛ فـبنظرة واحـدة منه تظهـر أفكاره فى قلبى.

حسين : للأسف. . فقد أُخرجت بالقوة من الجنة.

كـاظم جنوبى: عليك ألا تشـتكى من هذه الـرموز الإلهـيـة ، وأن تبحث عن مغزاها، فاذهب إلى مـرشدك الشيخ على وجودي، لكن تذكر أنك جئت الآن بعد نزهة فى عـالم النور، وعليك أن تذكّره بذلك اللقب (الدينى) المشهور به فى هذا المكان.

حسين : هل له أيضا لقب آخر ؟ لم أسمع عنه.

كاظم جنوبى: نعم، هـو الذى تعرف اسمه فى هـذه الدنيا، لكنهم يطلقون عليه "الوادى الأيمن" فى عالم النور.

حسين : (متعجبا) الوادى الأيمن (بعد برهة من التفكير) لاشك أنه يجب تسميـته بالوادى الأيمن، فقد تراءى لى من جانبـه الشعاع الأول لنور الحقيقة.

كاظم جنوبى: كفى واذهب الآن ولترغب فى الطلب.

حسين : لكن مـن الضرورى أن أخبـره عن إمكانية مـرورى مرة أخرى فى عالم النور.

كاظم جنوبى: لاشك فى أنه يستطيع هذا الأمر، فالمؤكد أن مرشدك إذا اهتم بذلك فإن كل الأمور تكون ممكنة.

بهذه الجملة أشعل كاظم جنوبى مـصباح الأمل فى صدر حسين إلى حد ما وفى النهاية تركا المسكن الموحش وقدما إلى مدينة إصفهان، وبمجرد أن وصل كاظم جنوبى إلى باب مسجده صاح قائلاً: "من الأفضل سد فم الكلب بلقمة" ، وبعدها ودعه حسين وسلك طريقه إلى مدينة حلب.

فى هذه الرحلة أخـذ حسين يفكر فى الجنة وحـورها فى كل وقت، ومع أن جسمه كان فى هذه الدنيا ، لكن أفكاره ومـعتقداته وروحه كانت تستمتع باستمرار بالعالم الآخر، عالم النور، وكان يقول فى خاطره ؛ لقد اتضح لى الآن وبعد كل هذه التجارب مـا معنى "موتوا قبل أن تموتوا" أو مهـما كان البقـاء فى هذه الدنيا، لماذا يقضى الإنســان فى عالم الملكوت شطرا كبيـرا من حياته؟ بعد قطع علاقـته بأرض العناصـر هذه أو الدنيـا والآن وفى هذه المرة عندمـا كان يتـجه من أصـفهـان إلى حلب تراءى له

شـــيء جديد عليه تمامــا أوقعـــه فى حيرة من أمره وهو أن أكثر الناس فى القرى والمدن التى كــان يمر بها كانوا يعــرفون تلقائيــا بأنه رجع بعد أن طاف بالجنة، فأخذوا يأتون عنده ويباركون له فكان قلبه يضطرب، فما سر هذا الأمر؟ وأى علامة تلك التى بسببها يعرف الناس حالته؟ لقد استفســر عن هذا الســـر من بعــض الناس، ولكن لم يخبـره أحد بشىء، وزمــرد الآن قد ملكـت عليــه عقله وقلبه أكثر من ذى قـبل، فى النوم واليقظــة، فى الجلـوس والنهــوض فى كل حالـة كانـت تتراءى له صورتهـا الـفاتنـة أمامه، فكانت تســـتدعيه إليها أحـيانا ، وتؤكد له على الصبـر والتحمل أحيـانا أخرى ، وكــان يراهـــا فى الحلم مضطـربة، ووصــــل إلى مدينة حلب وذهب إلى الشــيخ على الوجـــودى ، وخر على قدمـيه فـأنهضـه الشــيخ وقبل جبينه وربط على ظهره ثم أجلسـه بجواره، وقال: يا حسين لقد جئت بعد أن تنزهت فى اللاهوت الأكبر.

فقال حسين: أيها الشيخ لقـد رأيت عالم النور بكل تجلياته، فيا أيها الوادى الأيمن إن التـجلى الذى ظهر لى من جـانبك كأنه اشـتيـاق موسى للسؤال وتلقيه الرد بـ "لن ترانى" ، لكن مــاذا أقول وبأى حسرات تركت أرض النور هذه؟

الشيخ : يا حفنة تراب! أخبرنا ماذا رأيت هناك؟

حسين : ما رأيته هو كل ما تتمناه العين.

الشيخ : لقد كان ذلك بسبب جاذبية النور ؛ فهل لاقيت زمرد؟

حسين : (بعــد أن قبَّل قدم الشـيخ) قابلتهــا ، ولكني حتى الآن لم أشبع منها (واغرورقت عيناه فلم يعد قادرا على الرؤية) .

الشيخ : ولكن جسمك الترابى هذا لن يستطيع البقاء كثيرا فى موطن النور، فمع أنك تقول إننى متأكد بأننى رأيت عالم النور بعينى، إلا أننى أقول لك يا حسين إنك لم تراه.

حسين : لا.. إننى رأيته أيها الشيخ الوادى الأيمن ، وأعتقد أننى أراه بعينى الآن.

عندما سمع الشيخ هذا الجواب من حسين أخذته العزة واشتاط غضبا واحمرت عيناه وهب واقفا فجأة فى حماس ، أما حسين فقد ارتعدت فرائصه من الخوف من رأسه حتى إخمص قدميه.

وبدأ الشيخ يقول: أيها المتكبر المغرور يا حفنة من تراب أى طاقة لديك بحيث يمكنك أن ترى بعينيك القاصرتين هذا النور الأزلى، لقد رأيته بعينيك الماديتين، فإن الأشعة الساطعة للأنوار الأزلية لا يمكن لها أن تلمع وتومض فى الضوء الخافت ؛ فإن هذا النور غير المتحيز كان ظاهرا أمام جسمك ، ولا يمكن أن تتضح أطواره الحقيقة أمام عينيك بأى طريقة ، نعم إنك سوف ترى هذه الأنوار ، وسترى حالتها وشكلها الحقيقى، ولكن متى؟ بعد أن تترك هذا الجسد الترابى ، وتصبح متجردا منه ، عندئذ ستذهب إلى منطقة النور ، وفى ذلك الوقت سوف يتراءى لك أنك أيضا مصباح فى هذا النور الأزلى.

حسين : (بصوت مرتعد) ولكننى الآن لا أريد المضى من هناك.

الشيخ : لاشك أنك ربما لا تريد ، ولكن كان هذا مستحيلاً، فلا يمكن للنور أن يتحمل كثافة المادة.

حسين : لكنك أيها الشيخ الوادى الأيمن لو أردت فإنك تستطيع الرجوع إلى عالم النور، آه أنا كثير الاضطراب من أجل زمرد.

الشيخ : (بعد أن استشاط غضبا) إذا كان هناك حب فيكفى هذا القدر ، لا يمكنك تحمل مشقة قبول عدم رؤية موطن السرو هذا، فإنك إذا ألقيت بشيء مادى فى النار فإنها بعد أن تتعامل معه تنحى الشوائب المتبقية، وهكذا موطن النور فإنه يقذف بجسمك بعد أن يخرج منه الخير.

حسين : إذن فحررنى من قيد هذا الجسم الترابى بيديك حتى أذهب بعد التجرد والصلاحية وآخذ حبيبتي زمرد فى أحضانى فأى عجب فى هذا وهى حتى الآن باسطة يديها شوقا لى .

الشيخ : الآن يستطيع الإمام قائم القيامة مساعدتك فى الوصول إلى هناك.

حسين : مع أننى بايعته فى هذا البرزخ الأكبر وقت وصولى فى بلاطه إلا أنك ساعدتنى، وعونك لى مقدم على الجميع.

الشيخ : حسنا ، لا تقنط فإننى سأمتحنك مرة أخرى ، ولو نجحت فى هذا الامتحان فإننى سوف أوصلك مع توصية منى إلى بلاط الإمامة .

حسين : فلتأمرنى سريعا فأنا مستعد للتنفيذ، فالموت أعظم أمنياتى ولو كان الموت من نصيبى فى هذا الامتحان ؛ فأى حظ سعيد لى أكثر من هذا.

الشيخ : أسلك الآن الطريق إلى مدينة دمشق واقتل الإمام نصر بن أحمد الذى يلقى خطبه ضدنا نحن معشر الباطنية ثم ارجع..

حسين : سأرحل الآن ، ولكن أخبرنى هل نحن أولئك الباطنية الذين يذكرهم الناس أحيانا باسم "الملاحدة" ، وأحيانا أخرى باسم "القرامطة".

الشيخ : لا شك، نحن نؤيد إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام، ولأن الإمامة ظاهرة لهذا فإنه من الواجب علينا أن نبلغ بها فى الخفاء وبالطرق السرية الباطنية ، لقد فصلت الأنوار الأزلية فى هذا الأمر منذ القدم وهو أنه مادامت الإمامة ظاهرة فإن التبليغ بها يكون فى الباطن، وعندما تكون الإمامة سرية وباطنية عندئذ يبدأ التبليغ بها علانية.

حسين : لكن أسباب ذلك أسمى من أن يدركها عقل القاصر.

الشيخ : لاشك أنها أسمى (وحدق فيه بقوة) إلا أن شكوكك الجاهلة أسمى بكثير، فاتجه بخيالك إلى الله جل وعلا ترى أنه خفى ، ولهذا السبب فإن التبليغ والدعوة تكون علانية.

حسين : أيها الوادى الأيمن إن النبوة ظلت ظاهرة ، وكانت الدعوة بها علانية باستمرار منذ زمان ظهورها.

استشاط الشيخ على وجودى غضبا ، وصاح بلهجة شديدة الغضب "الشيطان حتى الآن مستقر فى قلبك ، فقد أغواك ويعوق رغبتك فى الذهاب إلى عالم النور ، أنصت، إن الإمامة فقط هى المرتبطة بهذا النظام، أما النبوة فستظل ظاهرة دائما وظلت الدعوة إليها علانية منذ وقت ظهورها ، ولكن إلى أى شىء يتجه الناس فى دعوتهم إلى الرسالة والنبوة؟ إلى الله وناحية الفردوس الأعلى وكلاهما مخفى عن الدنيا !

حسين : (مرتعدا) ولكن الإمامة أيضا تدعو إلى مثل هذه الأشياء.

كان الشـيخ قد بلغ به الغـضب مبلغا ، وانتـفض فجأة وهبّ واقـفا وقال: أنت تشك فى التنزه فى عالم النور وتتجاهله، إن الجنة ونور الأنوار لم تكن ظاهرة فى عـصـر النبوة بهـذا القـدر الذى عليـه الآن فى عهـد الإمامة، فالرسالة لم تبعث مطلقا إلى موطن السرو هذا فى شكل مادى ، فى حين ظلت الإمامة تبعث باستمرار ، وعلى هذا تكون النتيجة الحاسمة والنهائية أن الفردوس الأعلى والنور الأزلى كانا مخفيين فى البداية ، وهما الآن ظاهران ؛ ولأنهمـا ظاهران الآن لذا يجب العمل على الدعوة لهـما بطرق خفية وسرية.

حسين : يا أيها الوادى الأيمن لقد هدأت من روعي الآن ، وكان من الضرورى أن ترتفع شكوكى ؛ لأننى سـمعت كثيرا من الإشـاعات والتهم التى لا أساس لهـا تنسب لهذا المذهب ، وكنت قد سـمعت أن الناس فى ضمن حلقة آلموت تعرضوا لكل أنواع الدسائس للدخول فى هذا المذهب.

الشيخ : هذا محض افتراء من الأعداء والجهلاء، ومثل هؤلاء الناس ليس لهم عين بصـيرة ، وليس لهم قـيمة أو اعـتبار ، وليـسوا أكـثر من خفـافيش أمام تلك الأنوار الأزلية، فـهل هناك أى اعتبـار لأقوالهم، من المؤكد أنه بعد طى هذه الدرجات سوف يتراءى لك فى أى ملأ أعلى نكون نحن؟ وبأى سهولـة نتنزه فى موطن السرو؟ وهم فى أى قعـر من الجهالة يسقطون؟ وكيف ينحدرون تحت الثرى يوما بعد يوم؟

حسين : أعلم ذلك ، نطق حسين بهذه العبارة ثم ودّع الشيخ وسلك طريقه إلى دمشق ليقبض روح الإمام نصر بن أحمد.

كان حسين الآن أكثر جرأة لمثل هذه الأعمال ؛ فالشكوك التى نشأت فى قلبه فى أول مرة لم يعد لها مكان فيه ، وكان قد تأكد أن الجنة فى أيدى هؤلاء الناس الذين يعتقد بهم حقا وبإشارة منهم ينجو من أفعال الخير والشر ؛ فبالرغم من قتله لعالم جليل القدر إلا أن قلبه لم يتردد قيد أنملة ؛ لأن صورة الشيخ وزمرد قد شجعاه، ووصل دمشق لتنفيذ الحكم على المرشد بوحشية وبقلب غاية فى القسوة ؛ فانضم إلى أنصار الإمام نصر.

وكان قد رأى فى هذا السفر ما حيره، فبعض الناس فى أثناء سيره فى الطريق يتعرفون عليه، ويعانقونه، ويؤكدون له وحدة التفكير والأخوة ، وقد بدا له من هذا كم أن المتجانسين معه فى الرأى والعقيدة منتشرون فى الدنيا بكثرة؟ ولحسن حظه وبسبب اضطراب قلبه سنحت له الفرصة لتنفيذ هدفه بعد شهور، ففى نهاية إحدى الليالى وعندما كان الإمام نصر مجاورا المسجد يؤدى صلاة التهجد وحيدا فى الظلام ومختفيا عن الجميع غرس حسين الخنجر فى قلبه، بعد أن أغلق فمه بإحدى يديه ، وبعد أن قتله صرعه على الأرض وجثم فوق صدره وجلس فوقه بعد أن ضغط عليه ، وهكذا لم يصدر عن الإمام نصر صوت ولم يتململ، وعندما صارت الجثة باردة تماما خرج من المسجد فى صمت الهزيع الأخير من الليل وفى سكونه ورحل، وفى الطريق جلس على شاطئ أحد الأنهار وغسل ملابسه واتجه صوب حلب.

وقد أثنى الشيخ على وجودى على خدماته وقوّى من عزمه وقال إنك يا حسين تطوى مراحل اليقين بسرعة فائقة وتنجح فى أهدافك.

حسين : أيها الوادى الأيمن إننى متحير من أمرٍ ما حيرة كبيرة فحيثما اذهب وأينما أتوجه فإن المتجانسين معى فى الفكر والعقيدة ينظرون إلى هيئتى ويعرفوننى ، لكنى لا أستطيع معرفتهم.

بعد أن سمع الشيخ هذا أخرج مرآة من أحد الصناديق ، وبعد أن نظر فيها قال: انظر إلى صورتك ألا تبدو على وجهك علامة ما .

حسين : نعم هناك وسمة على الجبهة ولا أعرف أى وسمة هذه ربما أكون قد سقطت فى مكان ما فى مرحلة الطفولة.

الشيخ : (مبتسما) لا هذه علامة قبلة الحور ، وهذا هو الشىء الذى يؤكد دائما على أن الإنسان يمكن له أن يتنزه بجسده فى الفردوس الأعلى ويعود.

حسين : إذن فأولئك الناس الذين عرفونى غالبا ما تكون علامة قبلة الحور موجودة على جباههم.

الشيخ : لاشك، ربما تكون ، وانظر يا حسين إنها موجودة على جبهتى أيضا.

حسين : (بعد أن رأى نفس هذه العلامة على جبهة الشيخ) لاشك فهى وسام طى مدارج اليقين.

الشيخ : يا حسين هذا شىء عظيم جدا، فبعد الموت سيذهب جميع المؤمنين إلى الجنة ، لكن الناس الذين تنزهوا فى الحياة الدنيوية فى مركز النور هذا فإنهم سيفتخرون به هناك، فإن هذه العلامة ستظل تلمع كالنور على جباههم هناك وهى بالنسبة لنا ستكون تأكيدا على التميز.

حسين : لكن هذه العلامة عزيزة عندى فى الدنيا، يا ليت شفتى تستطيع أن تصل إلى جبهتى لكى أقبل هذه العلامة ويتسلى بها قلبى، فلا يمكن أن تكون هناك علامة لقبلة أحد آخر على جبهتى سوى لزمرد ولو أحصل على قبلة فتكون فقط من شفتيها الياقوتية.

بوسمى أنا الفقير لورق الحناء لكى أقبِّل كف القلم ذلك بالرسالة

لكن للأسف فكما أن زمرد فى قلبى ولا أستطيع أن أنالها هكذا فإن علامة قبلتها معى فى كل وقت لكن ليس من فرصة أستطيع أن أوصل بها شفتى المشتاقتين إلى هناك.

الشيخ : أبعد عنك الآن الأفكار الشاعرية ، واستعد لتقبيل أقدام أمام القيامة.

حسين : لبيك، ولكن أيها الوادى الأيمن زدنى لماذا تطلقون عليه أمام القيامة؟

الشيخ : هذا أيضا رمز من الرموز الربانية، ولعلك لا تعلم أيضا أسماء أولئك الأئمة حتى الآن ، والذين يعدون أشعة النور الأزلى ويظهرون فى أجساد مختلفة ، وفى أوقات مختلفة ويظل هؤلاء دائما الناسوت الأكبر ، وهو نفس النور الذى كان يشع فى الأجساد الطاهرة لسيدنا آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين ، ثم ظهر فى النهاية فى جسد سيدنا على المرتضى ، ولأن النبوة قد خُتمت الآن لهذا فإن هذه الروح الواحدة بدأت تنتقل فى الأجساد المختلفة ثم سرت فى أجساد الحسين وعلى زين العابدين ومحمد باقر عليهم السلام ، وهي ذلك النور الذى حل فى الجسد المنير لحضرة جعفر الصادق وهو حى حتى تركت صورتها الجسدية وحلت أولاً فى إسماعيل ثم فى محمد المكتوم بن إسماعيل وفى غضون عدة أيام ظل هذا النور يشع فى الخفاء فى الأجساد الطاهرة بالترتيب الإمام منصور بن محمد المكتوم وجعفر الصادق وحبيب بن جعفر ، وظلت الإمامة مخفية . . فى ذلك الوقت عن إسماعيل.

والآن فإن هذا النور ظهر فجأة فى ذات عبيد الله مهدى ، وأظهر أنواره الكاملة ، وصارت الإمامة ظاهرة ، وظل هذا النور من بعده يتبدل فى الأجساد الظاهرة المختلفة باستمرار وبشكل علنى، فأعلى درجات اللاهوت الأكبر توجد فى أجساد القائم بأمر الله ومنه إلى منصور ثم المعز لدين الله ثم العزيز بالله فالحاكم بأمر الله ثم الظاهر لإعزاز دين الله ثم المتنصر بالله حيث تشع من جسده ومن بعده إلى نزار ثم حسن بن محمد عليه السلام ثم حلت هذه الأنوار الأزلية فى الحال عند ركن الدين خور شاه حاكم قلعة آلموت وهو إمام قائم قيامة البرزخ وهو تجلى اللاهوت والناسوت الذى ظل يصدر عن الأجساد المختلفة للإمامة والنبوة.

حسين : (فى حيرة) وهو نفسه الذى بايعته على يديه فى عالم اللاهوت.

الشيخ : هو نفسه.

حسين : ولكنك تقول إنه هو حاكم التمونت[١].

الشيخ : بلا شك لكن هذه العلائق الدنيوية وتجرده ونورانيته قد نالها من عالم الإلهام الغيبى ، ولا يمكن له أن يخدع ، وهذا هو الفرق بين الإمام الدينى وعامة الناس، فالشىء الذى لا نستطيع أن نحصل عليه بالعمل والرياضة الروحية يمكن أن يحصل عليه كاملاً بالفطرة ، ولهذا يطلقون عليه برزخ العالمين.

حسين : ولماذا يدعى إمام القيامة؟

(١) هى قلعة "آلموت" وأحيانًا ترد هكذا فى النص وهى خطأ وقع فيه النساخ . (المترجم) .

الشيخ : (بعـد أن هدأ قليلاً) نعم أنا لن أذكر لك سـره الآن، ففى عهـد الإمامين المسـتنصر ونزار كان يوجـد فى الأنوار الأزلية شـمع مضئ جديد وغير عادى ، ويقال إن هذا الشمع هو انعكاس لنور الإمامة الجديدة والقديمة ، لكنه انعكاس كامل وضخم إلى الحد الذى أضاء بتجلياته جميع ممالك الأرض ، ومنه كـان مـصـبـاح نـور المراد الذى سطع فى الجـسم الصافي لحـسن بن الصباح، ولقب إمام القـيامة كان من شعـاع مرآة النور الإلهى ، والتى وصلت فـجأة مـن حدود الدرجـات العلى وأرض النور، فمثل هذه الطرق الصحيحـة التى تنشأ فى الإنسان ويحصل بها أقل الناس على الكمـال ، والتى كانت فى الـعهـود القديمة مـقصـورة على الأنبيـاء والأئمة؛ فمن قبل لم يكن أحد يستطيع أن يفكر فى الذهاب إلى الفردوس الأعلى، لكن الآن وبعد ظهـور الشعاع الإلهى الأسـمى عرضت لى هذه الحـالة وهى أننى أغمض عـينى وفى لحظة تجـدنى أتنزه فى عـالم النور ، ومن الممـكـن لك أنت ومـثـات المـؤمـنين أن تذهـبـوا إلى هـذه الجـنـة وتتمتعوا بمعانقة الحـور، إن معنى القيامة عند أهل الظاهر هو ذلك الوقت الذى تنتـهـى فـيـه الحياة الدنـيـا ، لكـن القيـامـة عنـد أهـل الحقـيقـة والصوفية هى فقـط هذه الحالة أو اسم ذلك الوقت الذى ينال فيه المخلوق القرب من الخـالق أو شعاع النور، ولأن حـسن الصباح نال درجـة القرب هذه فى عـهـده ؛ لذا يطلق عليـه إمـام القيـامـة أى الإمـامـة التى عن طريقـها يقـترب المخلـوق مـن الخـالـق ، ونتيـجـة لهـذا الجوار فـإنه فى غضـون عدة أيام ؛ فـإن الإمام على ذكـره السلام هـو صاحب الإمـامة القديمة التـى كانت تنتقل جـيلاً بعـد جيل من سيـدنا على المرتضى، وهو أيضا الإمـامة التى كـان مصـبـاحهـا يضئ فى البداية فى نفـس حسن بن الصباح.

لقد جمع بين كلتا الإمامتين[١] ، وفجأة ثارت الأنوار الأزلية ، ومنذ ذلك اليوم رفعت عن العباد جميع التكليفات الشرعية ؛ ففي يوم ٢٧ رمضان ظهر شعاع النور والحظوة أي عليكم أيها المؤمنين أن تتحرروا من القيود الشرعية ، ولهذا السبب فإن ذلك اليوم بالنسبة لنا عيد وفي ذكراه يتردد على لساننا كل وقت:-

انشرح الصدر وزال الحقد بتأييد إلهي، إمام الزمان "على ذكره السلام" .

حسين (بعد أن تملكته الحيرة): ولكنني أراك منُهمكا في الرياضة الروحية ليل نهار ، ومثلك مثل العديد من مرشدي هذه الفرقة الناجية الذين لاقيتهم يبدو جميعهم غاية في التقوى والورع وفي غاية الحيطة ومرتبطين بالشرع.

الشيخ : لاشك أن من يريدون طي درجات التصوف والعرفان عليهم طيها بالعبادة والرياضة ، لكن لم يفرض على المؤمنين الآن أي عبادة وخاصة المختارين منهم الذين يتقربون من الإمام قائم القيامة.

حسين : ولكن أيها الوادي الأيمن إن قلبي في حاجة إلى هدايتك واهتمامك، ورفع التكليفات الشرعية أحد الأشياء التي تبعث الشكوك في قلبي.

(١) هكذا تم الجمع بين الإمامتين، أما إمامة إمام القيامة فقد ورثها حسن بن الصباح والإمامة الثانية القديمة فإن "على ذكره السلام" قد زعم بتأويلات وإرشادات عظيمة أنني لست ابنه الذي ينسب إليه بل أنا في الحقيقة ابن من أبناء نزار بن المستنصر الفاطمي الذي كان مختبئاً في قلعة التموت، وهكذا يلتقي بأبناء فاطمة(عليها السلام) في سلسلة النسب ، وكان قد أعلن أنه سيد بنفسه ، وأنه وارث للإمامة.

الشيخ : (بغضب) أتشك أيضا فى طى مـثل هذه المنازل! أبعد السير فى عالم النور والجنة هناك شك، الآن ليس هذا شك بل وقاحة؛ اعلم أن جميع عـبادات الله عز وجل لنيل القرب منه، وعندمـا يتم هذا القرب لا يكون هناك ضـرورة لأى عبادة ، لعلـك سمعت أو رأيت أيضـا أنه ليس هناك أى شـخص مكلف بالعـبـادة فى الجنة ، وهذا هو أصـل الفكرة ومنشأها ؛ فالعبادة تكون للتقـرب من الأنوار الأزلية وهناك يحصل عليها كل فرد .

حسين : بلا شك هذا هو الهـدف المقصود والعبـادة هى الطريق إليه وبعد الوصول إلى الجنة لا يكون هناك أهمية لأى عـبادة فى الحقيقة، لكن الناس الذين لا يزالون حتى الآن خارجـها لا يمكن القول إنهم وصلوا إلى الهدف المقـصود أو أنهم يسـيرون إليه أو هم فى الطريـق لهذا ؛ فالعـبادة ضرورية لهم كذلك.

الشـيخ : (وقد غـضب غضبـا شديدا وغـاب عن وعيـه) إن هذه الشـبهـات والشكوك تخرب هذا الـهيكل التـرابى(الجسـد) ؛ فهـذا شك باستمرار والشك عقـبة كبيرة ، اسمع يا حسين إن إمام القيـامة قال بنفسه إنه فى عالم النور هذا خارج عن الجسد ومعناه مع أن جسده يبدو فى هذا العـالم المادى فى الظاهر إلا أنه فى الحقـيقـة بعيـد عن هذه الماديات وفى الفردوس الأعـلى ، وأن ما يعنيـه البقاء بالـقرب منه والالتقـاء به هو أن الإنسان بعد أن يخرج من هذه الأرض المظلمة ويصل بالقرب من اللاهوت الأكبر كيف تكون العبادة بعد أن يصل إلى هناك؟

حسين : حسنا، لقد ابتعدت شكوكى، إن كلامك يزيل دائما الشكوك من قلبى، ولنـيل هذه الطمـأنينة فـإننى أعـرض عليك دون تردد مـا قـد يـساورنى من شكوك.

الشيخ : حقا ، لقد اجتـزت هذا الامتحان بنجاح ، وسأرسلك فى خدمة الإمام عـليه السلام ، فاذهب إليه وأطع أوامره طاعـة كاملة واليوم العشرون من صفـر والسابع والعشرون من رمضان هو عيد إمـام القيامة ، وسوف أحـضر هناك فى هذا التـاريخ أيضا ، و سوف يكـون الشيخ(طور المعنى) موجـودا هناك كذلك، ولو تأثرت تأثرا كامـلاً بطاعة إمام القيـامة فسوف أشفع لك ، وسيفعل طور المعنى كذلك ، وفى ذلك الوقت سوف تنجح فى لقـاء زمرد ، لكن عليك أن تعلم فى هذا البـلاط الأعلى ترفع عن كاهل الإنسـان كثير من الـتكليفات الشرعـية حيث يكون الانقـياد هو الطاعـة والعبـادة ولو حدث تقـصيـر فليس له عـلاج عندى ولا عند أى شخص آخر فـيحرم المقصـر للأبد من الرحمة الإلهية ويـصير مطروداً أبدا وملعونا لهذا البلاط.

حسين : إننى لن أعصى أى حكم.

الشيخ : إنه يختلف عن هذا المقام ؛ حيث تظهر شكوك قلبك هكذا بلا تكلف مثلما تفعل معى.

حسين : مطلقاً. لن أشك فى أى أمر.

الشيخ : لو أنك متـماسك إلى حد ما ؛ فـاذهب من هنا فى صباح الغـد واتجه إلى قلعـة آلموت ، وسأحـملك رسالة تأخـذها وتمثل بين يدى الإمام ولا تغادر هذا البلاط مادام لم يصدر أى أمر منى أو من هناك.

حسين : لن أغادر قط. (قال هذا ثم قَّبل قدمى الشيخ).

وفى صباح اليوم التالى أخذ رسـالة التوصية من الشيخ على وجودى وودعه وولى وجهه قبل المشرق ، وبعـد عدة أيام وصل إلى أصفهان قادما

من بغداد ثم وصل إلى منطقة رودبار ، وكان فى هذا السفر يتعرف على من هم على مذهبه دون عناء من علامة قبلات الحور ؛ حيث يجدهم فى كل مدينة وقرية ، وكانوا يخلصون له النية عندما يعترضهم ، وكان فى قرية ديلم شخص باطنى يُعرف من علامة جبهته قد أتى لتوه من جنة الفردوس، فأخذ حسين إلى بيته بصفاء قلب وإخلاص عظيم، حيث حل عليه حسين ضيفاً عدة أيام، وكانت هناك صحبة من الناس فى منزله ، فقد اجتمع جمع من الباطنية الذين كانوا قد طعموا من الجنة فى خلال عام أو عامين ، وكانت صحبة هؤلاء الناس خالية من الغرباء وقاصرة على من هم على شاكلته فبدأوا يتذكرون الجنة فيما بينهم ، وفى أثناء الكلام قال أحدهم : "لكن ظلت لى أمنية فى الجنة" .

الثانى : (بدهشة) وما هى؟

الأول : هناك أمر(بالجنة) يبدو فاتن وخلاب حتى إنه يجعل القلب يتملص بلا سلطة ، لكن يعلم الله ما هذا الأمر؟ وقد حاولت آلاف المرات إلا أن الحورية الفاتنة لم تجب عن هذا الأمر.

الثانى : هذا موضع تعجب حقيقى، فمثل هذا يجب الا يكون فى الجنة فعندما يميل قلبك ناحية أية حورية ولم تلتفت إليك فإن جميع المتع سوف تذهب هباء حقا.

وبعد أن سمع هذا قال شخص ثالث فى الحقيقة : إن هناك بعض العيوب من هذا النوع تبدو للإنسان ، وكنت قد طرحت هذا الأمر على الشيخ الذى طمأننى بدوره بسهولة كبيرة ، حيث قال بحماس وحمية عظيمة وكأنه لا يزال يقول فى أذنى الآن: لقد ذهبت إلى عالم النور بعد

أن اصطحبت مع هيكلك المادى آلافا من الدنس ، ومن ثم آمل أن تنظر إلى الجنة بشكل مجرد وصافٍ مثلما تراها بعينك غير الماديتين، فهذا فى حد ذاته عيبك وعجزك المادى ، ومن ثم يبدو لك هذا النور شائن وبه عيب.

الأول : وأنا هناك كنت قد سمعت بهذا أيضا أن هذه الحورية لم تحصل على هذا التجرد الذى حصل عليه الآخرون ، ولهذا لم تنقطع عنها التعلقات المادية كليةً.

الثانى : لاشك فى أنه ربما يكون هذا هو السبب ؛ ففى البداية كان يوجد عيب شخصى فى هذه الحورية ثم نظرت إليها بعينيك الماديتين فتضاعف القبح.

حسين : (بقدر من الاهتمام) ألم تعلم اسم هذه الحورية؟

الأول : نعم علمت، اسمها زمرد ، وأنا لن أنسى حوريتى التى كنت أستمتع بها فى حضنى، وقد علمت أنها متعلقة بأحد الهياكل الترابية بحيث لا تلتفت ناحية أى من المتنزهين في الجنة.

وفى اليوم الثانى مضى حسين قدما بعد أن ودعهم ، وظل لعدة أيام واقفا على باب قلعة آلموت.

الباب السادس

المطرود الأزلى

مُنع حسين على باب قلعة آلموت؛ لأنه لم يستطيع تقديم تصريح الدخول إليها ؛ لذا أرسل إلى المسئول عن القلعة بالرسالة التى كان قد كتبها له الشيخ على وجودى ثم قدم طلبا إلى ركن الدين خورشاه وكان إماما لجميع الباطنية فى تلك الأيام وكان حفيدا لعلى - على ذكره السلام - وكان خورشاه آنذاك فى عنفوان الشباب ، ولكن عندما يظهر الإمام فى عقيدة هؤلاء الناس يكون هو الإمام ، ولهذا لا يوجد أى فرق فى تقديسه ومهابته بسبب حداثة عمره ، ففى رأيهم أنه مادام حصل على منصب الإمامة فهو معصوم ويتساوى فى ذلك طفل فى السادسة من عمره مع عجوز فى السبعين من عمره، وأحكام كل منهما واجبة التنفيذ على قدم المساواة ، وكان حسن ابن الصباح قد أسس هذا المذهب وهذه المملكة بعد جهود خارقة ، وقد انقضى عليها الآن مائة وخمسون عاما ، وبالرغم من الثورات الكبرى التى حدثت فى العالم إلا أن هذه الأسرة ما تزال تبسط سيطرتها ، وقد أضر بمكانتها السياسية بعض الأبطال المغامرين والغزاة مرة

أو مرتين ، إلا أن أثرها الـديني انتشر أكـثر من ذى قبل واسـتمـرت قلعة آلموت هكذا محـصنه وفى مأمن ، وبالرغم من الاعـتراض والمخالفـة فلا احد يستطيع أن يمسها بسوء.

إن تاج الإمامة الدينيـة كان قد بدأ من هنا على رأس هؤلاء الملوك ، ولكن منذ بداية عهـد على ذكره السلام ؛ فـإن هؤلاء الناس بدأوا يطلقون على أنفسـهم لقب الإمام والأسرة الخـالدة لبنى فاطمة ، ولهـذا فإن على ذكره السلام قد زعم أنه عندما كان طفلاً استـبدل بطريقة سرية بحفيد نزار بن المستنصر الـفاطمى ، ومن ثم فقد ادعى هؤلاء الناس المطالبـة بالإمامة عـلانية آنذاك ، وهم الآن يظهـرون بأنفـسهم برزخ الناسـوت واللاهوت والنور المحض ، وهؤلاء الناس هم الذين يمتـثلون للأوامر بعد أن يغـضوا الطرف عن أوامـر المـلك أو الإمام بـلا عــذر أو سـبب ، والتى ترتعـد الدنيا بأثرها من خنجـرهم يسمون بالفدائيين وطريقـتهم التضحـية بالنفس بأمر الحاكم والإمـام ، وهم يعتبرون الانتحار وسـيلة للخلاص والنجاة ، وبسـبب أولئك الفـدائيين كـان ذلك الرعب والرهبـة فى بلاط ركن الدين خورشاه ، وربما لم يدانيه فى ذلك فى عهده بلاط ملك آخر، وليس لأى شخص هنا طاقة على المعارض ، كما لا يخطر على باله سوء الأدب أمام الملك.

وعندما رأوا خطاب الشـيخ على وجودى سمحوا لحـسين بالمثول بين يديه فقد أخذه فدائى قوى البنية، مهيب الجانب ، واصطحبه إلى خورشاه وعندما ، مثل حسين أمامه ورأى صورة حاكم آلموت أسرع فتعثرت أقدامه وصاح "هذا إمـامى! هذا إمامى" ، وتردد ركن الدين فى رفـعه إليه فـقام بعض من كبار القوم من أهل البلاط برفعه ثم أوقفوه فقال: لاشك فى أنه

إمام الزمان والنور المحض ، ولكنى أستعمل الصبر والأدب وأقدم التماساً إليه .

خورشاه: أيها الشاب الأملى ماذا من أمرك؟ فالوادى الأيمن يثنى عليك ثناءً جميلاً ، ويمتدح فيك علمك وفضلك وشجاعتك وتضحيتك.

حسين : (بعد أن قبل الأرض بأدب) فقط بسبب أننى لم أقصر لحظة فى أداء خدمته ، ولم أتجرأ مطلقا وأحيد عن أمر بحر الحقيقة.

خورشاه: والآن لأى سبب أرسلك الشيخ إلى هنا؟

حسين : يا إمام القيامة ، إننى أريد رؤية الفردوس الأعلى وأنظر إليها مرة أخرى.

خورشاه: (بعد تفكير) إن ومضات الأنوار الأزلية لا يزال ينبعث منها هذا الصوت ردد "لن ترانى" .

حسين : لكن اهتمام إمام القيامة شفع لى فليس من الصعب الاتتحقق أمنيتى .

خورشاه: أيها الهيكل الترابى المجنون ، إننى الآن لا أستطيع أن أعدك بأى نوع من الأمانى فيما يتعلق بذلك.

وبعد أن قال خورشاه هذا التفت إلى أحد الأشخاص بينما قال حسين بصوت مفعم بالألم واليأس، بعد أن دمعت عيناه : "لو أذن بلاط الإمامة لهذا الفدائى الحقير بأن يقف على هذه العتبة انتظارا لذلك الوقت مادام هذا سوف يحقق أمنيتى وبمناسبة العيد القادم لإمام القيامة سوف يحضر الوادى الأيمن إلى هنا أيضا فأى عجب فى ذلك اليوم عندما يجتمع

الإمام وقائم القـيامة فى مكان واحد ويقترب المخلوق من الخـالق والشعاع من النور، فلتقبل دعائى" .

خـورشاه: حـسنا. قف . . لكن علـيك أن تعلم أن الاختـبـار هنا صعب للغاية.

حسين : أنا مستعد لتأدية جميع أنواع الاختبارات.

وبعد هذا اتجه خورشاه ناحية شخص ثان وسأله: متى جئت ياديدار؟

ديدار : (بعد أن طلب العفو) اليوم فى الصباح.

خورشاه: وهل أنجزت المهمة التى ذهبت من أجلها؟

ديدار : إن خنجـرى لا يخطئ الهدف قط؛ فـمع أن المهمـة كانت مستـحيلة ، لكننى أنجزتها بنجاح كـبير شوقا للجنة والذهاب إليـها ولأمر الإمام.

خورشاه: حسنا ، صف لنا كيف قتلت جغتائى خان.

ديدار : يا إمام القيامة كان فى تركستان فدائى اسمه متقى نشأت بينه وبين قدوى صداقة قوية بعد أن شـارك فى جميع المجالس واللقاءات حتى بدا لدى منقوخان الابن الشجاع لجغتانـى خان رغبة قوية للقائى؛ فدعانى للإقامة فى بيته واستـمررت على هذه الحالة لعدة أشهر ولـم يكن يميل إلى أى أمر، مـا لم أكن معه وعـرّفنى بأبيه وعندئذ صار جـغتائى خـان أيضا شـغوفـا بأحـاديثى ، وظل الأب والأبناء لعـدة أيام ليس لهم أنيس ولا جليس غيرى، وكان جغتائى خان بنفـسه مهيب الجانب قوى البنيان حيث لاح استحالة نجاح الهجوم عليه ، ولهذا السبب لم تسعفنى الشجاعة رغم

أن الفرصة سنحت لى عدة مرات ، وفى نهاية الأمر وفى مساء أحد الأيام كان هولاكوخان قد جاء لأمر وذهب منقوخان للقائه فوجدت جغتائى خان ينام وحيدا ،ولم اكن أتوقع فـرصة سانحة أنسب من هذه فالتحـمت معه أولاً وقيـدت يديه ورجليه بالحبـال ثم جثمـت على صدره وقضـيت عليه وبعد قتل جغتائى خان عدت ، ولكن كانت الأوامر عندى أن أخبر هؤلاء الناس أن جـغتـائى خان قـد قتل ومن أجل هذا الغـرض كتـبت كل هذه التفاصيل فى رسالة واحتفظت بها عندى فى البداية وبعد ذلك أخذت هذه الرسالة واتجهت ناحـية مقر هولاكوخـان ، ومن حسن حظى أننى لاقيت ابن جـغتـائى خـان فى الطريق ، وكـان عائدا لتـوه إلى بيتـه بعد لقـاء هولاكـوخـان، وفى ظلام الليل وضـعت تلك الـرسالـة فى يديه وهربت واختفيـت فى إحدى الغابات القريبة ، وفى صبـاح اليوم الثانى علمت أن المأتم مـعد فى قـراقورم(*) وكل شخص يـبحث عنى بعـد هذه الحادثة ؛ فآويت إلى غار وبقيت فيه مختبئا ثمانية أيام كاملة ،وفى اليوم التاسع تبين لى أن السـاحـة خالية منهم فـخرجت من الغـار واتجهت إلى هنا ؛ ولأنال بعد ثلاثة شهور الآن شرف تقبيل العتبة.

خورشاه: لاشك يا ديدار أنك قمت بعمل عظيم، وتستحق أن تتنزه فى الجنة اليوم.

بعد أن سمع ديدار هذا خر على قدمى الملك ، ولكن خورشاه نفسه رفعه بيديه واصطحبه معه بينمـا حسين الذى غاب عن وعيه قال بحماس: أيهـا الملك الظالم أنا أحق الناس بـالذهاب للجنة وأنا مـشتـاق لهـا وإلا فامتحنى، اختبرنى بأن أقتل شخصا ما؛ آه فأنا لا أصبر على فراق زمرد.

(*) كانت قراقورم عاصمة التتار القديمة وهى قريبة من كاشغر (المؤلف) .

خورشاه: الآن لا يمكن امتحانك ، وليس لك حق في الذهاب إلى جنة الفردوس.

حسين : (في صياح وجلبة) ليس هناك أحد أحق بها مني فقد أطفأت مصباح حياة الإمام نجم الدين النيسابوري وخضبت يدي بدماء الإمام نصر بن أحمد ، أبعد هذا يوجد أحد أحق مني؟ أنا لا أستحقها فقط من أجل عدم صبري ، ولكن هناك حورية مضطربة وحائرة من أجلي. انتبه الجميع بعد سماع هذه الجملة الوقحة وتسارع البعض للهجوم على حسين ، وكان بالقرب منه فدائي قوي البنيان كاد أن يفتك به ، ولكن الجميع توقفوا بإشارة من يد خورشاه الذي نظر إلى حسين بحدة وقال: أقول لك إن جزاء هذه الوقاحة وسوء الأدب أن تطرد فورا من القاعة ، ولن يسمح لك قط أن تطأ بأقدامك غير الطاهرة الأرض الطاهرة للفردوس الأعلى، كان جزاؤك القتل، ولأسباب عدة رأيت أن قتلك غير مناسب ، ولكن الآن لا يمكن لك أن تلبث ساعة في القلعة، وفكر حسين في وقاحته وخر على الأرض ذاهلاً عن نفسه وبلهجة عاجزة وخاضعة بدأ يبكي وينتحب ويقول: لا يا إمام القيامة أعفُ عن خطأي ؛ لقد جعلني حماس الحب بلا وعي وذاهلاً عن نفسي لكنني لم أقصد ما قلت تماما، فاصطحب خورشاه ديدار إلى قصره وذهب ، وبمجرد أن ذهب أمسك الحراس بقوة بتلابيب حسين وأخرجوه من القلعة ، وأخذ يسترحمهم ويستجدي عطفهم ولكن لم يرق له أحد ، بل قال له بعضهم إنك محظوظ لأنك تطرد خارج البلد وإلا فإن القتل هنا جزاء الوقاحة.

حسين : إذن ماذا أفعل الآن؟ وأين أذهب؟

الحراس: نحن لا نعرف؟ فهذا شأنك.

كان اليأس قد بلغ بحسين مبلغا فى ذلك الوقت، فلم يكن قد يئس من وصال زمرد فحسب بل كان قد ابتعد بنفسه عن الأبدية والرحمة، كان فى اعتقاده أنه ما دام قد طرد من هذا البلاط فإنه لن يجد له مأوى، فأخذ يندب حظه فى الجبال خارج قلعة آلموت ويضرب رأسه فى الصخور، وحدثه قلبه بأن يذهب إلى الشيخ على وجودى ويطلب منه العفو ، ولكنه ظن أنه بعد أن طرد من بلاط الإمامة هذا فلن يجد له ملجأ هناك ، ولكنه استبعد هذه الفكرة ورأى اليأس محدقا به من كل جانب، وفى النهاية تذكر نصيحة زمرد وإلى جانب هذا تراءت أمام عينيه صورة زمرد والممر الجبلى لجبل "البرز" ، وفجأة قال بلا تفكير يجب علىّ الذهاب هناك ؛ فلم يعد لى الآن أى ملاذ ألجأ إليه سواه، ولكن مع هذا خطر على باله أنه لا أمل كذلك فى النجاح هناك مادامت علاقته قد قطعت تماما بالقلعة والجنة ، ومن ثم فلن ترضى عنى كذلك ولو افترضت أنها سترضى وذلك الحب القديم مستقر فى قلبها أمن الممكن أن تساعدنى بأى نوع من المساعدة خلافا لأمر المرشد والإمام؟ والآن لم يعد لديه أمل، أيمكن لها أن تدلنى على طريق نجاحى مثل ما وعدتنى من قبل ؟! وانخرط فى البكاء بعد هذه الفكرة ، وكان يخطر على قلبه مرارا أن يضرب رأسه فى هذه الجبال وينتحر ، ولكن من المؤكد أن اليأس سيكون مضاعفا، وفى النهاية قرر أن يذهب إلى قبر زمرد ويجلس عنده، فماذا يمكن أن يقلل من اليأس فسوف يضاعف ذلك من اضطراب القلب ، عندئذ سوف أحتضن قبر هذه الحورية.

وبعد أن قرر هذا طأطأ رأسه وأخذ يبكى، ذهب أولاً إلى قزوين ثم خرج من قزوين إلى جبل البرز ، ووصل إلى ذلك الممر الجبلى القديم

حيث أقام هناك، وبعد هذه الثورة وتلك الحيرة صار مـجاورا لقبر محبوبته الفاتنة ، وهكذا ظل مشغولاً بقراءة الفـاتحة والعبادة ليل نهار، كان يمكث عند القبـر لساعـات يتحدث مع طيف زمـرد ويبكى مرارا ويقـول: "أيها الفاتنة يا من تسكنين الفـردوس ، بالله عليك اتجهى ناحيـة قبرك وانظرى كم أنا حـيران ومـضطرب، آه فلا صـبر لى على فـراقك وحبك ، وقـد خسـرت العالمين فلا أنا هنا ولا أنا هناك، فلم يـبق فى هذه الدنيا ولا فى ذلك العالـم غير رضاك أنت أيتهـا المحبوبة الوفية يا بلاطى الأزلى فانظرى يا حبيـبتى إلى حالتى المزرية، واشفعى لى ولا تتـركينى يائسا من وصلك ونيل صدقة لحبك.

كانت هذه المشاعر التى يظهرها أمام القبر ، وكان مثل هذا الدعاء هو الذى يردده كل وقت ، وفى النهاية تحققت أمنيته فى أحد الأيام حيث فتح عينيه فى الصـباح الباكر فرأى على القبر رسـالة من زمرد، لم تكن رسالة بل رسالتين إحـداهما فى مظروف مغلق والـثانية مفـتوحة، وأخـذ حسين الرسالتين وقبلهما ووضعهما على عينيه وبدأ يقرأ الرسالة المفتوحة:

"يا حسين إنـك قد أخطأت خطأً جـسيمـا، فقـد أسأت الأدب فى حضور الإمام قائم القيامـة، وإنه لكسب لأنك قد نجوت، واآسفاه فأنا لـم أستطيع أن ألتـفت إليك بقلبى، وجئت إلى هنا عـدة أيام ، وسوف أرجع مـضطربة ، ونتيـجـة لهذا الاضطـراب أكـتب لك هذه الرسـالـــة، ومما يؤسف له أننى لم أكن أرغب فـــى العمل الذى ارتضـيت ، ولكنى كنت مضطرة فلماذا تركت الأمـر الذى كان ينبـــغى أن يكون، حسنا الآن أنت مسـتعد لتنفـيذ خطتى، لكن عليك أن تفـهم أن هذا العمل خطيـر للغاية ويجب أن تؤديه بصبر ودقـة ، وإذا عملت خلافا لرأيى ولو قليـلاً فسوف

يلحق الضـرر بك وبى أيضا ، ومن ثم سـوف لا نسـتطيع اللقاء مطـلقا فهذه آخـر حيلة وأخطرها وأنا مضطـرة لتنفيـذها فى هذا الوقت بعد أن تأكدت الآن أن جميع أبواب الأمل والرجـاء قد أوصدت دونك. أما هذه الرسالة الثـانية التى سـتجدها مع هذه الرسـالة فاحتـفظ بها مـغلقة هكذا وخذها واتجه ناحيـة الشرق واذهب مباشرة إلى مدينة قـراقورم القريبة من كاشغر حيث الملكة بلغان خاتون وهى إحدى ملكات الأسرة الملكية المغولية ، وحاول اللقاء بها منفردا وأعطهـا رسالتى هذه ولا تحاول أن تعرف بها ولا تسأل بلغان خـاتون عن أمرهـا ، عليك فقط أن تجيب إجابة صـحيحـة عـلى سؤالها لك، ولو وافقت الملكة بلغان خاتون على هذا الأمر فسوف تساعدك وإن رغبت فـى المجىء معك فأحضرها هى ومن معـها إلى قبرى وانتظروا، سوف تظهر لك بلغات خاتون كـرمها فى الغالب ، ومن المؤكد أنها سوف تصمم على المجىء إلى هنا مع جـيش من قومها فعلى الرحب والسعة ، وترقب ماذا يكشف عنه الغيب" حبيبتك زمرد" .

قرأ حسين هذه الرسالة ووضع الرسالـة الثانية فى صدره بحذر وهب واقفـا واتجه ناحـية قراقـورم على الفور، وفى الطريق كـانت هذه الفكرة تخطر على قلبه مـرارا وهى ما الغرض الذى من أجـله أرسلتنى زمرد إلى هناك ، ولكنه كان يبعد عنه هذه الفكرة ، ويقـول إن زمرد قد منعتنى من التجـسس على هذه الأمـور ، ومع هذا كان الفكر قـد استبـد به فى هذا الأمر وهو أن زمرد قـد نصحته بأن يجيب بصـدق على أسئلة الملكة. لقد انتهيت من مثـل هذه الأعمال وعند إفشائها أفكر فى نفـسى، فهل أخبرها أننى قتلت الإمام نجم الدين النيـسابورى بلا ذنب أو جريرة، وسلبت روح الإمام نصر بن أحمد وهو يصلى ، وكل هذه الأفعال ممنوعة فربما أصدرت

أمرا بقتلى لو علمت أن لى علاقة ما بالفرقة الباطنية، وفى الأشهر العديدة التى كنت أطوى فيها منازل السفر كانت هذه الأفكار تأتينى ويخامرنى هذا النوع من الظنون، وفى النهـاية وصلت إلى هراة ودخلت حدود تركستان ثم وصلت بعد عدة أيام إلى مدينة قراقورم الخـاصة التى كانت مركز التتار وعاصمتهم، وبعد أن وصلت إلى قـراقورم انقضت عدة أشهر كذلك دون الوصول إلى الملكـة بلغان خاتون، التى كـانت قصص حـسنها وجمـالها مشهورة فى كـل المدينة، ويقال إنها اعتزلت جمـيع الملذات الدنيوية بسبب صدمتها فى مـوت أبيها، وكان لها حديقة خارج المدينة مـجهز بها موضع للصيد واسع وممتع ، لكن الحزن على أبيها جـعلها هكذا كئيبة ، فلم تعد تأتى إلى هذه الحديقة، وذات يوم كان حسين واقفا فى وسط المدينة وفجأة حدث ضجيج وجلبة" الملكة بلغان خاتون قادمة" ؛فوقف بجانب الطريق، لم يطل انتظاره فقـد قدمت الملكة مع عدد من صـويحباتهـا يمتطين ظهور الخيل ثم مضين سـريعا. ربما تجرأ حسين وخاطر بـروحه وأعطاها الرسالة فى يدها، إلا أن زمـرد كانت قد أكـدت عليه أن يعطـيها لهـا حين تكون بمفردها ؛ فظل واقفـا صامتا وقد أصابه اليأس، وعندمـا مضت الملكة قال فى نفسه يبدو أنه من المستحيل وصولى إلى مخدع هذه الملكة الجميلة.

انقضت عدة أيام أخـر فإذا به قد سمع أن الملكة تعتزم بعـد فترة من الوقت الذهاب إلى مكان الصيد والحديقة فدب الأمل فى حسين ؛ لأنه قد يجـد الفرصة سـانحة هـناك ، ومن أجل هذه الفكرة فإنه فى البـداية ظل مختبئا فى موقع الصـيد ، وهناك جاءت الملكة بلغان خاتون ومضت لكن الفرصة لم تسنح لحسين، فقـد التقى بالملكة عدة مرات ولكن فى كل مرة كانت معها صديقة من صديقاتها.

حين استبد بحسين اليأس فكر فى حيلة أخيرة وهى أن يطلب وظيفة ، وهكذا يصل إلى مقر الملكة ، وكان بعد إقامته فى قراقورم هذه الفترة قد نشأ له أصدقاء عدة فزكوه لديها حتى نال بصعوبة شرف رئاسة اصطبل الملكة ، بعد شهرين من تسلمه لهذه الوظيفة لم تسنح له الفرصة للقائها بمفردها، وفى النهاية عندما نهضت الملكة من فراشها الوثير ذات مرة فى الصباح الباكر ذاهبة إلى الحمام كانت بمفردها تماما فقابلها وصافحها بعد أن تعلثم، وبعد أن رأت بلغان خاتون أن حسين يعترض طريقها بشكل غير عادى، توقفت وسألته: لماذا؟

حسين(بعد أن قبل الأرض أمامها) : الجميع بخير ، لكننى أحمل للملكة رسالة حصلت عليها منذ أشهر ، ومنذ ذلك الوقت أقيم فى قراقورم ولم يكن مسموحا لى تقديم هذه الرسالة بدون أن تكونى بمفردك ، وبسبب ذلك كان هذا الحد من التأخير ، واضطررت أن أقبل وظيفة الملكة ، وبعد سلسلة من الفشل الذريع ولحسن حظى سنحت لى الفرصة الآن لتقديم هذه الرسالة ، بعد أن قال هذا أخرج رسالة زمرد وأعطاها للملكة.

لم تكن الملكة بلغان خاتون مثل نساء التتار بل كانت عكس ذلك كذلك من أمراء التتار، ملكة على قدر كبير من التعليم والتحضر والثقافة فكانت تتحدث الفارسية بطلاقة، ليس هذا فقط بل كانت تستطيع أن تنقد شعر شعراء فارس بشكل جيد وتفهم أصعب ما فى الفارسية وأبلغها على أكمل وجه، فأخذت الرسالة ونظرت فيها بتمعن ، وكان غلاف الرسالة بسيطا وبلا زخارف فنظرت إلى حسين بتعجب وسألته: من الذى أرسل هذه الرسالة؟

حسين : ستعلم الملكة ذلك بعد قراءتها ، وفى حدود علمى فإن هذه الرسالة لم يخطها إنسان بل هى من إحدى الحوريات التى تسكن فى ذلك الفـردوس الأعلى فى النور الأبدى، تملكت الحـيرة بلغـان خاتون بعـد أن سمـعت هذه الإجابة ونظـرت إلى حسين وسـألته: "إذا كانت هـذه رسالة إحدى حوريات الفردوس الأعلى فكيف التقيت بها وما هى صلتك بها؟".

حسين : كل ما يربطنـى بها هو الحسرة على ذكراها فـقط ، وأحيانا تصلنى منها رسالة بإحدى الطرق الروحانية.

زادت حيـرة الملكة التترية بعـد أن سمعت هذا ، وأمـعنت النظر فى حسـين ثم فكرت وقالت : "حـسنا، اذهب أنت الآن، وسوف أقـرأ هذه الرسالة بروية واطمئنان ثم أستدعيك".

حسين : (بعد أن وضع يده بأدب على صدره): حسنا ، ولكن على الملكة إن أرادت الاستفسار عن الأمر أن تسـتدعينى بمفردها فأنا لا أستطيع أن أبوح بسرى بشكل جيد أمام شخص آخر.

بلغان خاتون : سوف ألتقى بك بمفردى.

كانت هذه الرسالة إلى جانب وصف حسين من الأشـياء غير العادية حتى إن الملكة بلغان خـاتون نسيت الاستحمام، وقفل حـسين عائدا بينما انقلبت هى إلى مخدعها ، وبعد أن جلست بمفردها فتحت الرسالة وبدأت قراءتهـا باهتمـام وتدبر شـديدين ، فكان مضمونها كما يلى:

"أيها الملكة الحـزينة الطيبة، لقد ابتليت بالحـزن على أبيك الذى قتل بخداع ماكر على يد فدائى البـاطنية ديدار، إننى أواسيك فى ألمك وحزنك ، ولهذا فـإننى - خلافـا لوظيفتى - أخـبرك بأن ديدار يجلس هنـا فى قلعة

الموت يستمتع بالجنة فلو أردت الانتقام لأبيك ورغبت فى القضاء على إحدى الفتن الكبرى فى هذه الدنيا، فتعالى مع حسين، الذى حمل رسالتى والذى بسبب الشوق إلى زيارة الجنة فقد العقل والحواس بل حتى الإيمان والدين ، تعالى إلى قبرى فى وادى جبل البرز، وبعد أن تأتى اقلبى أحجار القبر وسوف تجدين أسفلها رسالتى الثانية التى سترشدك إلى ما ينبغى عمله فإلى جانب انتقامك لأبيك ستكتشفين لغزا كبيرا ، وتفشين أكبر أسرار الدنيا وستعلمين الفرق بين الدنيا والملأ الأعلى ، وتستطيعين أن تسألى حسين عن أحواله وسوف يتضح لك أى أثر للفردوس الأعلى - حيث أكون - على قلبه، وسوف أجعلك تشاهدين هذه الجنة بدون صعوبة ، ولعل المجرم يقع فى يديك ؛ لذا تعالى وأسرعى بالمجىء.

لكن تذكرى أن تكونى موجودة على قبرى فى صباح السابع والعشرين من رمضان ، إلى جانب هذا من الضرورى أن يكون أحد الجيوش التترية موجودة بأعداد كبيرة بالقرب منك ، ولكنك يجب ألا تحضرى معك على قبرى أكثر من أربعة أفراد" .

ساكنة الفردوس. . زمرد .

لم يكن تأثير هذه الرسالة على بلغان خاتون بأقل من تأثير السحر ؛ فكانت وهى تقرأها تغضب غضبا لا حدود له، وأحيانا تسيطر على قلبها أفكارا خاصة بشكل كبير ؛ فلا يقر لها قرار ولكن حيرتها ودهشتها بلغتا مبلغا لا حد له، لقد قرأت الرسالة عدة مرات من أولها حتى آخرها وتفكر قليلا ثم تقرأ وتمعن فى التفكير ثم تفكر ويمتلكها الغضب وتبدأ فى التفكير بعد أن تضع يدها على الخدود الذهبية الرقيقة، وفى النهاية وبعد كثير من الاضطراب والتردد استدعت حسين وبادرته بالسؤال:

أتعلم ماذا كتب فى هذه الرسالة؟

حسين: لا ، لا أعلم حرفا مما جاء فيها.

جعلت هذه الإجابة بلغان خاتون تحدق فى حسين وتنظر إليه بعين الشك ثم سألت:

- هل أنت باطنى؟

حسين: (فى رهبة): نعم.

بلغان خاتون: هل تنزهت فى الجنة؟

حسين: رأيتها مرة واحدة وأطمع فى رؤيتها مرة ثانية.

بلغان خاتون: حسنا، سوف تحقق هذه الرغبة، ولكن أخبرنى هل تعد من الفدائيين كذلك.

حسين: لا شك فى ذلك.

حملقت بلغان خاتون فى حسين بعد أن سمعت هذه الإجابة ثم قالت: كم من الأنفس قتلت؟

حسين: فقط شخصين ، لكنهما من الكبار ، وقد ندمت على قتلهما.

بلغان خاتون: ألم تخف أثناء إعمال هذا الخنجر فيهما.

حسين: حدث ذلك، لكننى لم أكن أستطيع أن أحيد عن أمر المرشد.

بلغان خاتون: (بدهشة): ألم تفكر فى الخير والشر عند ارتكابك لمثل هذه الكبائر بأمر المرشد؟

حسين: متى يخطر على بالنا الخير والشر ونحن ننظر إلى كل شىء فى الظاهر، والشيخ تقع عينيه على الباطن- أو كما يحلو له القول - الحقيقة الأصلية.

بلغان خاتون: لو قال لك المرشد ألقِ بنفسك فى البئر هل تفعل؟

حسين: بلا تفكير ؛ لأن ذلك هو أول عقائدنا ورياضتنا الروحية الأولى ؛ فالمرشد يأمر بعد أن يرى الخير ولا يكون أمامه أى وجود للشر أو الضرر.

بلغان خاتون: كيف افترقت عنك زمرد؟

حسين: لقد منعتها، لكنها لم توافق وسلكت هذا الممر الجبلى فى جبل البرز حيث يمر به الحور أحيانا، وفى أثناء سيرنا وصلت الحوريات وقتلوها على الفور وأعدوا لها قبرا هناك وهو الذى أخذت أبكى وأنوح عليه فترة من الوقت.

لقد أوصلت الشهادة زمرد إلى الفردوس الأعلى وجاورت أنا القبر فى انتظار الموت، فإذا بزمرد ترسل لى رسالة من الفردوس الأعلى تنصحنى فيها بالدخول فى الفرقة الباطنية الناجية، وتخبرنى بطريقة الوصول لها وطبقا لنصائحها هذه حظيت بشرف رؤيتها مرة واحدة، لكن للأسف لا أمل فى لقائها مرة ثانية.

والآن فإننى أسعى ثانية لزيارتها و (سيدا) ذلك عن طريقك ، لكن نظرا لأنك لم تسمحى لى بالسؤال لذا لا أستطيع أن أتمنى شيئا فى حضورك.

اندهشت بلغان خاتون من سذاجة حسين، فابتسمت قليلاً ثم قالت: لا شك. . . سأحقق أمنيتك وتـنال ما تتمنى، لكن عليك أن توصلنى إلى ذلك المكان حـيث قبـر زمرد وإلى ذلك الموضع الذى (تطلق) عـليه مـقر الحوريات.

حسين: أمرك!!، عندما تتفضل الأميرة بالرحيل سيكون هذا الخادم فى ركابها.

بلغان خاتون: يا حسين لو قلت لك اقتل أى شخص فهل ستقتله؟

حسين: بلا شك بشرط ألا يكون هناك صعوبة فى قتله.

بلغان خاتون: وهذا الشرط يرتبط بالمرشد.

حسـين: لا ، إن (علاقة) المريد بالمرشد نوع آخـر من الارتباط، فمعه يجب أن يكون المريد كآلة بلا روح.

بلغان خاتون: حـسنأ ،الآن سأعد العدة للسفر ، وعليك أن تـستعد أنت كذلك.

حسين: أنا مستعد فى كل وقت.

ودعت الأميرة حـسينا وذهبت إلى حمامها وهى فى دهشـة متزايدة، وكان الناس قد وجدوا نوعا من التغير غـير العادى فى مزاجها، فأخذ كل شخص يســأل عن سبب ذلك لكنها ظلت صـامتة ومندهشـة أيضا، وفى صباح اليوم الثانى حمل إليـها رسول رسالة ثم اتجه إلى مكان ما ، وبدأت هى كذلك تعد العدة للرحيل لكن كان من الضرورى بالنسبة لها أن تحصل على إذن من أخيها منقوخان ملك التركستان ، وكانت مترددة فى ذلك.

الباب السابع

سفر بلغان خاتون

بعد أسبوع من ذلك اليوم الذى سلم فيه حسين رسالة حبيبته زمرد ساكنة الجنة إلى بلغان خاتون، ذهبت الأميرة التترية إلى أخيها منقوخان فى الصباح حين كان فى بلاطه عدد من زعماء الأسر التترية وسادتها فجلست صامتة وخائفة لم تنطق شيئًا أمامهم لفترة من الوقت، فقال منقوخان بعد أن رأى الأخت صامتة:

لماذا هذا الصمت غير العادى يا أختاه؟

أحد رجال البلاط: إن الأميرة لم تنس الحزن على والدها حتى الآن.

منقوخان: بخ ، بخ يا بلغان ، دعى عنك هذا الحزن الآن، فإن بقاءك حتى هذه الأيام فى الألم والحزن يتعارض مع طبيعتنا وشجاعتنا القومية.

بلغان خاتون: حقا يا أخى، نسيت هذا الحزن (وبعد قليل من الصمت): حسنا ستمضى الأمور ، لكننى حضرت الآن لأنجز عملاً مهمًا.

منقوخان: ما هو؟

بلغان خـاتون: يا أخى لقد انتـصرت فى معـارك كثـيرة، لكن الآن أرغب فى أن أخوض إحدى المعارك بنفسى.

تملك الجمـيع الحيـرة بمجرد أن سمـعوا هذه الجملة، وحـملق فيـها منقوخان متسائلاً:

"حسنا يا أختـاه، أى معركة هذه ؟ وهل تسـتطيع أسلحتى أن تؤدى المهمـة؟ أخبرينى برأيك واذكـرى لى اسم أى شعب أو دولة ، وليس من الضرورى ذهابى بنفسى بل سيذهب جيشى الشجاع هناك ويدمر كل شىء فى لحظة.

بلغان خاتون: هذا صحيح ، ولكننى أريد أن أدير هذه المعركة بنفسى بشكل خاص.

منقوخان: فى النهاية أية معركة تلك؟ وعلى من ترغبين الهجوم؟

ردًا على تساؤله وضـعت بلغان خاتون رسـالة زمرد أمامـه وقالت: اقرأها أولاً ثم اسأل.

قرأ منقوخان الرسالة من أولها إلى آخـرها ، ولكن قبل الانتهاء منها بدأ الشرر يـتطاير من عينيـه ومط شفتـيه وتطاير الشـرر من عينيـه واهتز حاجـباه ، وبعد أن انتـهى من الرسالة قـذف بها بغضب وقـال: "حسنا، فلتطمئنى يا أختاه وليهدأ خاطرك، سأكتب غدا إلى هولاكوخان" .

بلغان خاتون: لا – هذه معركتى.

منقوخان: ماذا ستفعلين بذهابك؟ ليس عملك الحرب والضرب.

بلغان خاتون: بعد أن أمحو هذا المذهب من الدنيا، أريد التأكيد على أن النساء أيضا يتميزن بالشجاعة مثل الرجال فلو أعطين الفرصة فإنهن لن يكن أقل من الرجال فى أى أمر ، والآن أنت تدرك هل الحرب هناك ضرورية أم لا؟

منقوخان: لا شك أنها ضرورية، ولا يمكن النجاح بدونها، يبقى بعد ذلك شجاعة النساء فأنا أوافق على أن النساء يتفوقن على الرجال فى الحكم، فهن اللواتى أعيتن شجعان الدنيا بأسرها ودمرن عروش الملوك العظام والأبطال الكبار ، وعليه فإن المرأة هى التى تحكم ولكن أسلحة المرأة أسلحة أخرى، فهى لا تحارب بالخنجر والسيف ولا بالسهم والنصل، بل تنتصر على أعدائها بخنجر الرموش وسيف الحاجب ونصل الدلال وسهم النظر، إلا أن أسلحة المرأة هذه لا يمكن أن تكون مفيدة فى ميدان الحرب، ففى ذلك الميدان الذى تريدين الذهاب إليه يكون النصر فى مثل هذه الميادين باسم أسلحة الرجال ، طأطأت بلغان خاتون رأسها خجلى من هذه الإجابة ، ولكنها أبدت صلابة وقوة من خلال نظراتها وقالت: "يا أخى لا تظن الأمر بهذا الشكل فإننى سأحارب هكذا بفدائية وشجاعة كما يجب أن تحارب أى فتاة تترية شجاعة.

منقوخان: أنا أعرف ذلك ، ولكن مادمنا موجودين أحياء فلا يمكن أن نشق عليك أيتها الجميلة بوضع قدمك فى ميدان المعركة، وفى نهاية الأمر ما هو أهمية ذهابك؟

بلغان خاتون: هذه فقط معركتى وهى واجب ، وأنا الآن أريد الآن تحمل المسئولية.

منقوخان: حسنا فاذهبى بمثل هذه الرغبة، لكننى سأذهب معك ، فلا يطيب لى أن أستسيغ تقدم إحدى أميرات الأسرة المغولية المعززة إلى ميدان المعركة وحيدة :

بلغان خاتون: لكن يا أخى لا أمل فى أى قتال هناك وسنكون بضعة جنود وسننتصر .

منقوخان: أنت لا تدركى ذلك ؛ فالناس الذين يستعدون للتضحية بروحهم بإشارة واحدة من القائد ينبغى الخوف منهم.

بلغان خاتون: لكن رهبة التتار مستقرة فى القلوب ؛ لدرجة أن هؤلاء الناس يلقون بالسلاح بدون حرب وقتال ، وهذا ما أفهمه وأدركه.

منقوخان: لا شك فى ذلك ؛ فالرهبة والخوف منا أمر واقع ، ولكن ليس من السهل عليك أن تقتلعى أسرة دينية وملكية قديمة قدم مائة وخمسين عاما من جذورها وتلقى بها جانبا.

ظل منقوخان مصرا على رأيه لفترة طويلة إلا أن الأميرة بلغان خاتون لم تستسغ مشاركته بأى حال من الأحوال ، وعندما رأت أن أخاها الملك لا يوافق مال عليها وقال لها شيئا فى أذنها بعدها أخذت تفكر لفترة قصيرة ، وفى النهاية وبعد بحث وتشاور قرر أن تتوجه الأميرة التترية الشجاعة وفى ركابها خمسمائة فارس، ثم نهضت واستعدت بلغان خاتون فى طريقها للعودة وتوقفت وعرضت الرسالة مرة ثانية أمام أخيها قائلة: "لكن انظر قليلاً فقد أخبرتنا كذلك متى يجب الذهاب من هنا، انظر فى أى تاريخ دعتنا زمرد" .

منقوخان: (بعد أن قرأ الرسالة) فى ٢٧ من رمضان.

بلغان خاتون: الله يعلم ما الهدف من تحديد هذا التاريخ ، إذن ينبغى علىّ الرحيل.

منقوخان: لابد أن فيه أمر جلل ، وهذا أيضا لم يدر فى خلدى فماذا سيحدث بعد وصولك إلى هذا الممر الجبلى، من الممكن أن تكون هذه المرأة التى قالت بأنها حورية تخدعك.

بلغان خاتون: أرجو ألا تكون رسالتها ودعوتها لى خدعة ، ومع هذا ومن جانب الاحتياط عقدت العزم على اصطحاب معى قليل من الجند، وأنت تعلم أننى قمت بالاحتياطات اللازمة من أجل سلامتى، نعم لقد دعتنى زمرد يوم ٢٧ رمضان، فأى تاريخ اليوم؟

منقوخان: عشرون من جمادى الأول يتبقى أربعة أشهر تقريبا لن يستغرق الطريق أقل من ثلاثة أشهر وإذا وصلت سريعا فلتقيمى فى موضع ما فى الطريق، أما عن الذهاب فينبغى الرحيل غدا. بعد ذلك فكر منقوخان قليلاً وقال: "حسنا لقد جاءتنى فكرة جيدة، فلتبقى يازمرد لمدة يوم أو يومين وفى اليوم الرابع يسير هولاكو بالمدد بجيش جرار قوامه أربعون ألفا من الجنود ، وسوف يصطحبه طوبى خان وتكونى معه أيضا ؛ فهؤلاء الجند سيذهبون إلى حيث تتجهين، بل سيتقدمون عليك، فقد استولى هولاكوخان على عرش الديلم وهو الآن يتعقبه وبعد وصول هذا الجيش سوف يقصد أرض العراق ويرغب كذلك فى عقاب خليفة بغداد على غروره وصلفه.

بلغان خاتون: إذا كان الأمر مجرد يوم أو يومين فسوف أبقى.

بعد ترتيب جميع الأمور عادت بلغـان خاتون إلى قصرها واستدعت حسين وأبلغـته أن الرحيل بـعد غدٍ ، وأن عليـه أن يظل مستـعدا، وضع حسين يده على صدره وأحنى رأسه بأدب وقال : "أنا مستعد فى أى وقت تطلبينى".

وعلى الجانب الآخر بدأ طوبى خان بن منقوخان إعداد العدة للرحيل ومعـه أربعون ألف جندى وأعطيت الأوامر لهم بالاسـتعداد، وقـد قضى الجند الليلة الأخيرة فى انتظار وترقب وشوق عجيب بينما عمت الضوضاء والضجيج جـميع أنحاء قراقـورم، وانتشرت البهجـة وزاد تحرك الجند هنا وهناك، ومن كان منـهم فى خيامـهم ومنازلهم كانوا يخـتبرون أسلحـتهم ويعدونهـا أو كانوا يودعون أطفـالهم وزوجاتهم الأثيرات ، وفى الصـباح الباكر دقت طبول الرحـيل فإذا بأسراب التتار يتقاذفون فى غـمار الحماس تحت أعلامهم وبيارقهم يتغنون بأناشيدهم القومية وقد ارتفع ضجيجهم.

سار هذا الجيش بعد تقسـيمه إلى ألوية مختلفة، كل مقدمـة يتقدمها خمسة آلاف شاب ثم ينقسم الفدائيون إلى مـجموعات كل مجموعة تضم خمسـة آلاف ينتشرون يمينا ويـسارا، وظل لواء مكون من خـمسة آلاف فى سرب فى الخلف بيـنما كان فى الوسط أى القلب عـشرون ألفـا كاملة من التـرك وقد سـاروا من الخلف للأمام وهـم مقـسمـون تحت الرايات وفى جيوش منفصلة ، وكان طوبى خان وبلغان خاتون يمتطيان حصانين تركيين قويين ، وكانت الرماح والأقواس التتـارية تتحلقهم من الجوانب الأربعة ، وكانت تتعالى من كل طرف من الأطراف الأربعة أصوات الحماس والثورة ، وارتفعت كذلك نعرات النصر والفتح ، لقـد كانت جحافل التتار هذه مثل سرب من الجراد أخذ يخرب ويحطم كل شيء فى الطريق.

وكانت القرية التى تلوح فى الأفق تجدها خــالية من البشر ؛ لذا فإنه عندمــا ســمع الناس بمــجئ قطاع الطريق الظالمين تــركــوا منازلهم وفــروا هاربين، وقد أضرمت النار فى المنازل غــير المأهولة والخربة ، وكان هؤلاء الجند يهدمون القرى والمدن التى يمرون بها ويقوضونها فيصبح التراب أسود بعد أن تحتــرق، وكان هؤلاء المتوحشون يقتــلون كل من يلتقون به من بين الرعايا طفلاً كــان أم عجوزاً، رجلاً كان أم امرأةً، وخــلاصة القول هو أن هؤلاء الناس خربوا منطقة غزنة وخراسان بأسرها ، وساروا بمحاذاة شاطئ بحر الخزر حتى وصلوا إلى مازندران ، وبعد أن نهبوا ودمروا القرى هناك خرجوا ناحية آذربيجان وكــان هولاكوخان موجودا فى تلك الناحية ؛ لأنه كان يتعقب سلطان الديلم ، ولذلك توغل ناحية الشمال أكثر ، وفى تلك الأثناء وصل إلى هذه الأرض خــمســمــائة تاتارى ، وكان ذلك فى الــثامن عشر من رمضان فكان عــليهم أن يرابطوا مضطرين فى هذا المكان عدة أيام فلا يمكن أن تكون هناك مــصيبة بالنســبة للجيش التاتارى أكــبر من هذا ؛ فقد كان من عادة هؤلاء القوم أن يعيــشوا سعداء وفى أحسن حال ماداموا ينهبــون ويغيرون وحيثــما حلوا فى مكان ما يصــيبهم الفقر مــا لم يجدوا مدينــة أو إقليم جديد ينهــبونه فمــاذا يفعلون هنــا؟ لقد كانوا مــضطرين، فالجــميع يعيش فــى فقر وفــاقه أيام الانتظار، وكان يوم انتــظارهم التاسع يوافق يوم الســابع والعشرين من رمضــان ، وكانت بلغان خاتون فى انتظار أحد ما منذ الصــباح ، وكان اضطرابها يتضاعف كلمــا تأخر، وفى النهاية وعندما رأت أن الميعاد قد فاتها فإنها رحلت بعد عظيم تردد مصطحبة معها ثلاثة من الجنود الأقوياء تاركة جــميع رفاقها متخــذة من حسين مرشدها، وبعــد أن ترك حسين والأمــيرة التــاتارية الطريق وصــارا على شاطئ نهــر ديرنجان وصلا إلى الحديقة المقصودة بعد أن عبروا الغابات والممرات الجبلية

بصعوبة ومخاطرة ووقف حسين على قبر زمرد وقرأ الفاتحة وقال: هذه هى الحجارة التى يستريح تحتها الهيكل العنصرى لزمردتى.

أخرجت بلغان خاتون رسالة زمرد ثم قرأتها وبدأت إزالة أحجار قبرها بيديها طبقا لنصيحة زمرد فنحت جانبا أربعة أو خمسة أحجار ووجدت رسالة زمرد الثانية حسب الاتفاق ففتحتها وقرأتها فى صمت مطبق ، وبعد تردد قليل بدأت تنظر وتجيل النظر أمامها ، وبعد عدة لحظات فكرت قليلاً ثم مالت على أحد المرافقين لها وأسرت له بشىء وقفل الجندى التاتارى عائدا بعد أن سمع سر الأميرة التى نظرت ناحية حسين وقالت: "هيا بنا".

حسين: إلى أين؟

بلغان خاتون: حيثما أذهب - وبمجرد أن قالت هذا أشارت إلى الجنديين الباقيين بالمجىء معها وانطلقت ؛ لم يكن أمام حسين من خيار فمضى معها دون تململ أو تردد.

واتجهت بلغان خاتون إلى الجهة الشمالية لهذا الوادى فى تلك الناحية التى كان حسين قد رأى فيها الحوريات ، وأخذت تسير حتى وصلت بعد ساعتين تقريبا إلى سفح جبل أخضر ، ورغم أنه لم تكن هناك علامات على وجود أى طريق فى هذه الناحية لكنها ظلت تتقدم ، وكان حسين ذو عقيدة والمريد يطيع بلا عذر ، لكن الجنود المصاحبين لها كانوا فى دهشة وحيرة فإلى أين تأخذهم الأميرة، فتقدم أحدهم وسألها بأدب: لا يوجد طريق هنا فردت عليه بلغان خاتون وقالت: لا تتكلم أمشِ فى صمت ، وبعد أن وصلت إلى سفح الجبل ولجت فى غار مظلم وقالت لرفاقها:

"امشوا هكذا حتى لا يعلم أحد آثار الأقدام" ، وطبقا لأمر الأميرة كان الناس يخففون الوطء بقدر الإمكان ؛ كان الغار معتما تماما من الداخل فيتلمس الجميع الطريق بالأيدى وساروا وهم يتجنبون التصادم فى كلا الجانبين وبعد خمسة عشرة أو عشرين دقيقة لاح ضوء من بعيد فاتضح أن فتحة الغار من هذا الجانب ، وفى النهاية خرجت بلغان خاتون من هذا الغار ، لكنها بعد أن خرجت من الغار اتضح لها أن هذا الموضع لا يقل وحشة ، حيث كانت هناك غابة كثيفة متشابكة الأشجار ؛ فكان ضوء الشمس يصل بصعوبة إلى الأرض.

وبمجرد أن وصلت الأميرة إلى هذه الغابة عرجت ناحية اليسار وكان وجهتها الآن ناحية الغرب فمضت للأمام باستمرار وتعثرت فى الأشجار والأشواك المتشابكة ، وكان المصاحبون لها قد اضطربوا بعد أن رأوا صعوبة فى عبور هذا الطريق ، وكانوا فى حيرة من أمرهم. وفى النهاية انتهت هذه الغابة فجأة عند أحد الجبال وعندما وصلت الأميرة انحرفت ناحية اليمين وسارت بمحاذاة الجبل حتى نهايته وعند موضع ما لاحظت الجبل وكأنه قد تصدع وانشق بسبب صدمة مفاجأة ، وظهر فى وسطه ممر طويل وضيق لا يسمح بمرور أكثر من شخص.

نظرت بلغان خاتون إلى هذا الممر بتمعن ثم جالت بنظرها فى جوفه ، وبعد أن اطمأن قلبها ولجت فى هذا الممر ، ولكنها قبل الدخول فيه مالت على أذن أحد الجنود المصاحبين لها وقالت شيئا ما فقفل راجعا من فوره. ودلفت الأميرة مع حسين والشاب الذى تبقى فى الممر فعثرت على شباك فى "صرة" داخل الممر ففتحتها فرأت زوجا من الملابس النسائية وزوجين من الملابس الرجالى لقرويين ورعاة البقر فأعطت الأميرة الملابس لحسين

ورفيقه الثانى وقالت: "اخلعا ملابسكما واتركاها هنا وارتديا هذه الملابس، قـالت هذا وبدأت هى نفسـها ترتدى الملابـس النسائيـة ، وعندما انتـهى الجمـيع مـن تغييـر الملابس بدأ حـسين ينظر بدهشة إلى ملابس الأمـيرة وهيئتها رغم حلول الظلام وصعوبة الرؤية.

بلغان خاتون: لأى شيء تتعجب يا حسين ولماذا؟

حـسين: هل تأذنـى لى، فـإنك تبـدين بعـد ارتداءك هذه الملابس كحورية سماوية لا أميرة دنيوية.

بعد أن سمـعت بلغان خاتون هذا الكلام ابتسـمت وقالت: تعال بنا فى صمـت ولنتقـدم ، واتضح فجـأة أن صخـرة مدببـة معوجـة أغلقت الطريق، وعندما استدارت بلغان خاتون رأت أسفلها فـتحة صغيرة نوعا ما بحيث يسـتطيع أن يخرج منهـا شخص واحـد بصعوبة بعـد أن ينكمش، فخـرجت من هذه الفتـحة وأمـرت المصاحـبين لها بالخروج كـذلك، ثم تقدمت الأمـيرة بعد تجـشم المشقة ، لكن الآن ظهـرت مشكلة كبـيرة فى الظاهر وكانت عبارة عن بوابة حديدية قوية مغلقة من الجانب الثانى، لكن بلغـان خاتون أخرجـت حجرا كـان بجوار المقـبض الأيمن للبـوابة وما أن تزحزح حتى ظهرت كوة ؛ فـوضعت يدها فى هذه الكوه وفتحت سلسلة البوابة من الداخل ، وبعد ذلك دفع الجندى التترى بمساعدة حسين المصراع الحديدى للداخل بقوة ، وهكذا ظهر طريق الخروج.

وما أن خرجت بلغـان خاتون من هذه البوابة حتى نـظرت فى حيرة ودهشة حيث بدأت الحدائق والرياض المفرحة والمنعشة للروح ورأت الطيور المغردة وجـبل الورود فصـدرت عنها عـبارات الإطراء بلا تصـنع ، وكان

حسين ينظر إلى هذا المكان بدهشــة بعد أن جال فيه ببصــره وبعد أن سمع هذه الكلمة على لسان الأميــرة قال: "إننى أعلم أنها هى الفردوس الأعلى ، ولكن أنى لى أن أقول ذلك؟".

بلغان خاتون: الآن انظر إلى حـوريتك، ومن الضرورى أن تبدو لك هذه الحديقة جنة، ولكن انظر بتـمعن هل هذه هي الفردوس الأعلى الذى تنزهت فيها" ، وقد ابتسـمت الأميرة قليلا بعد أن قالت هذا.

حــسين: تبدو من هذا المكان هى بعـينهـا، يا إلهى هل هذا علم أم حلم؟ انظرى هناك ، فإن الطيور تصدر نفس النغمات "سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين"[1].

بلغان خاتون: ما معناها؟

حسين: إن الله جل شأنه وعد فى القــرآن الكريم أنه سيرحب بالعباد (المؤمنين) بهذه الكلمات.

نطق حسين بهــذه الإجابة بلسانه ، لكن الحـيرة كانت تسـتولى على قلبه وعقله وعينيه ساعة بعد ساعة وهو ينظر إلى كل شىء مضطربا ويردد مرارا هل صعدت إلى السمــاء أم هبط الفردوس الأعلى إلى أسفل؟! فهى الحديقة بعينها التى تجولت وتنزهت فيها مع زمرد.

بلغــان خاتون: لقــد وصلت إلى الفــردوس الأعلى، فاطمـئن الآن وسوف أقابلك بزمرد.

(١) هكذا فى الأصل .

بعد وصول حسين إلى الجنة وتأكده من ذلك وسماعه لهذه الجملة من الأميرة، خرّ على قدميها وبدأ يقول: "لقد أرشدتينى إلى هذا الطريق ولم يكن عندى أمل فى مساعدة الشيخ على وجودى، إحسانك هذا سوف يظل منقوشا على قلبى للأبد.

بلغان خاتون: (بعد أن أخذت بيد حسين من على الأرض) اصبر وتجلد قليلاً، إن شرط لقاء زمرد أن تمشى معى فى صمت ؛ لأنك باضطرابك هذا سوف تفسد الأمر. وبعد أن قالت الأميرة هذا أخرجت رسالة زمرد وقرأتها ثم اصطحبت معها رفيقيها ومضت إلى ناحية فى دقائق معدودة صارت بالقرب من القصور والأكواخ.

وكان حسين واقفا فى هذا الجو المبهر ينظر بنظرات الدهشة والذهول عن النفس، وفجأة جاءت امرأة جميلة وفاتنة أمام الأميرة ثم انحنت لتقبيل قدميها.

بلغان خاتون: من أنت؟ لكن نظر حسين وقع عليها فصاح فى حماس وبلا وعى: زمرد، ثم جرى وعانقها.

زمرد : (بعد أن تنحت بحسين جانبا) اصبر قليلاً فإننى أريد أن أبدى الاعتراف بالفضل أمام الأميرة.

بلغان خاتون: أأنت زمرد؟ قالت ذلك وعانقت زمرد وقالت: أين إحسانى يا أختاه؟ لا شك أننى أشكرك شكرا جزيلاً فلو لم تساعدينى لما تخلصت من الحزن والألم أبدا .

زمرد: (بعد أن ابتسمت وبقدر من الندم) لكن أيتها الأميرة لقد كان فى ذلك مصلحة شخصية.

بلغان خاتون: يجب عليك ألا تصغى ذلك بأنه مصلحة شخصية، إن إحسانك على هذا الشاب الغر أن تمنحيه شرف حبك وتنقذيه من هذا الخداع البالغ الأثر ، وبعد هذا التفتت زمرد ناحية حسين وقالت: والآن فقد انكشفت لك جميع الأسرار.

حسين: أى سر؟ لقد أطعت أمر الأميرة وكان ذلك بسبب نصيحتك.

بلغان خاتون: لا فإننى حتى الآن لم أقل له شيئا ، ولم أريه خطابك، ولكننى عندما دخلت فى هذه الحديقة ازددت اضطرابا وحيرة وفقدا للوعى، والآن اذهبى معه وقولى له ما تريدين قوله ولتبعدى هذه الوحشة عنه ولتصبحى إنسانة.

زمرد: واآسفاه لقد أخطأت حين فعلت ما فعلت ولمن الصعوبة بمكان أن أنال الطمأنينة.

بلغان خاتون: لكن من الحكمة الآن أن تأخذيه إلى قصرك وتجتهدى فى رفع حجاب الخداع من أمام عينيه ، ولكن أخبرينى أولاً ألا تشعرين بالخوف هنا، فطبقا لرسالتك ، فإنى قد جئت حتى لا ينالك أى سوء.

زمرد: عليك أن تطمئنى أيتها الأميرة، ولا تفكرى فى أى أمر ويمكنك البقاء هنا اليوم آمنة مطمئنة حتى المساء ؛ أما ما كنت قد كتبته فهى احتياطات وتدابير قمت بها.

بلغان خاتون: لقد أعددت كل العدة بالرغم من أننى مترددة قليلاً فيما يتعلق بذلك.

زمرد: ما هى؟

الأميـرة: حسنا لا بأس من هذا ، وسوف أقـصه عليك فيمـا بعد، قالت هذا ثم قالت للشاب الذى بقى معـها شيئا فى أذنه فرجع وبدأت فى سؤال زمرد: "أخبرينى من أى ناحية يمكن الهجوم على القلعة؟" .

زمرد: الآن أنت فى القلعة ، ولكن هذا الجـزء قد فصل عن القلعة. بالرغم من أن الناس الغـرباء هنا يخرجـون من تحت الجدار الخـارجى عن طريق نهر ديرنجان، لكن قصر خورشاه فى هذا الجانب من النهر.

حسين: (بعد أن انتبه) قـصر خورشاه أين هو من هنا ؛ إنه فى قلعة آلموت.

بلغان خاتون (مبتسمة) : الآن أوصليه إلى قصرك الدرى هذا والذى يتشوق لرؤيته ، وسوف نتحـدث فى بقية الأمور بعد العودة ؛ لأنه لو ظل موجودا فلن نستطيع الحديث معا.

زمرد: لا شك أن قولك صائب أيتها الأمـيرة فسوف أجلسه هناك ثم أحضر، وبعـد أن قالت هذا أمسكت بيد حسين الذى كان واقـفا فى عالم من النسيان وسحبته وأخذته معها إلى قصرها الدرى ؛ فطرح حسين عليها العـديد والعديد من الأسـئلة طوال الطريق لكن زمـرد قالت عند الإجـابة على كل سؤال سأقول لك فيما بعـد ، وبعد أن أجلسته فى القصر عادت إلى الأميرة وظلت واقفة تأدبا.

بلغان خاتون: نعم هذا الطريق يتجه من هنا إلى قصر خورشاه.

زمـرد: نعم هو يأتى هنا فى النـهار ثم يـنصرف إلى حـيـاة اللهـو والترف، وستصلين بسهولة مع جـميع رفاقك من هذا الطريق، وستجدين طريقـا بمجـرد أن تنزلى أولاً من الجـســر الذهبى للنهـر وهو الذى يؤدى

مباشـرة إلى قصر حريم خورشاه ، والـذى يدخل فيه يدرك أنه وصل إلى قلعة آلموت، واليوم يوم العيد ، وفى هذا الوقت عادة لايحضر أى شخص إلى الجنة ولا خورشـاه نفسه ، ولهـذا فإن جميـع المقربين فى هذه المناطق وعلية القوم والرؤسـاء يأتون من بعيد لزيارة الإمام ، ويجتمع جـمع كبير من أتباعهم فى القلعـة ، ولهذا السبب استدعيـتك فى ٢٧ رمضان ؛ لأنه من الضرورى أن تظل هذه الحديقة خاليـة من الأغيار فى هذا اليوم ، كما أن الفرصة لا تـسنح لخورشاه نفسـه بالمجىء هنا لمدة ثلاثة أو أربعة أيام ، ولو كانت فى وقت آخر فانه سيعرف بمجيئك إلى القلعة فى الحال.

بلغان خاتون: إذن الآن لا يعرف أحد خبر مجيئنا.

زمـرد: لا على الإطلاق، أولاً ليس هنا أى رجل ولو علم الحـراس استـعـدوا للحـرب، وربما تهـرب أى امـرأة وترحل ، ولكننى اليـوم فى الصبـــاح أغلـقت بوابة جسـر المدينة بالقفـل والمفتاح عنـدى ، ولهذا لا يستطيع أحد الهروب من القلعة ، ومن حسن الحظ أنه لا يمر أحد من هنا هذه الأيام.

بلغان خاتون: هذا أمر طيب تماما ، أتقولين اليوم عيد فبينما حماس السرور وضـجيجه فى القلعـة لا أحد يفكر فى شىء فسـوف يتم هجومنا قـبل الليل، ولكننى يا زمـرد متـرددة من هذا الأمـر ؛ لأن الجـيش الذى دعوته لنجدتى لا يعرف حتى الآن وفى رفقتى خمسمائة جندى فقط وربما لا يكفون.

زمرد: أنا أعلم أن خمـسمائة شاب يمكنهم أن يسـتولوا على القلعـة من هنا.

بلغان خاتون: ولكنى متأكدة أن المـدد سيأتى لنا بالضرورة فيجب أن تمهلينى فقط حتى المساء.

زمرد: ما مـعنى المساء، إنك تستطيعـين أن تظلى مختفيـة هنا حتى الغد، فلا تفكرى فى شىء ، عليك أن تـخلدى للراحة حتى يحين الوقت فأنت متعبة وقد وجدت فرصة جيدة للاسترخاء، بعد ذلك سألت الأميرة: ولكن يا زمـرد ما هى الحكمـة فى هذه الملابس التى اقتـرحتـيهـا علىّ أنا والمرافقين لى؟!

زمرد: أيتـها الأميرة إن مـلابسك هى نفسها مـلابس الحور ، والتى يعتـبرها الناس هنا ملابس الجنة ، وبسـبب هذه الملابس لا يمكن لأحد أن يسئ الظن بك.

بلغان خـاتون: ربما لهذا عندما رآنى حسين مـرتدية هذه الملابس قال إنك تبدين مـثل الحور، بعد أن سمعـت زمرد هذه الجملة ضحكت كـثيرا وقالت: ولكنه لم يقل لى أى شىء عن ملابسى.

بلغان خـاتون: حسنا ، ولكنك لماذا اخـترت مثل هذه الملابس غـير المنسقة للرجال.

زمرد: لأن الرجال الذين يأتون إلى هنا هـم بائعو اللبن بشكل عام، والذين يملأون الأنهار والأحواض هنا باللبن والخمر، فلو جاء أى رجل هنا مرتديا هذه الملابس فلن يفكر أحد (لن يخطر على بال أحد) أنه غريب.

بلغان خـاتون: ولو لم يكن هذا وعلم أحـد ما وانكشف السـر قبل الموعد.

زمرد: لن يعلم أحد ؛ فأنت مقيمة هنا شوقا ، وفى يوم العيد لن تسنح الفرصة لأحد بالمجىء هنا.

بلغان خاتون: حسنا سوف أقيم هنا ، ولكن عليك أن تنزهينى فى الجنة قليلاً، وترينى كذلك الجسر والشارع حتى أعرف الطريق جيدا.

زمرد: تفضلى.

بعد هذا الاقتراح أخذ حسين والفتاتان الحسناوتان فى التنزه بين القصور والخمائل وقد شاهدوا ربيع الحدائق والرياض إلى أن وصلوا عند شاطئ هذا النهر الكبير الذى عن طريقه يدخل الناس إلى الجنة بعد أن يركبوا فى سفينة ذهبية، وكان باب جسرها الذهبى موصدا ففتحته زمرد ونزلت الفتاتان فى ساحة الوادى الثانى ، وكانت الورود ممتدة حتى الأفق البعيد ويمر من بينها شارع يتجه إلى فضاء مفتوح بعد مسافة غير بعيدة ثم يختفى فى أجمة أشجار ظليلة هائلة، وكان طريق قصر الحريم ناحية تلك الأشجار، وبعد هذه النزهة الممتعة عادت الأميرة وذهبت إلى قصر الفيروز الشاهق طبقا لمشورة زمرد ، وظلت زمرد جالسة عندها زمناً طويلاً، وعندما رأت أن الأميرة بلغان خاتون أخرتها وتريد أن تستريح ؛ استأذنت منها وأغلقت الباب من الداخل وانصرفت ناحية قصرها.

الباب الثامن

إفشاء الأسرار

عاد الفتى حسين مندهشا فاقد الوعى بعد أن ترك القصر الدرى بناءً على اقتراح زمرد والأميرة وكان مضطربا ، ينظر إلى كل شىء ويستفتى قلبه قائلا هل هذا حقا هو المكان الذى جاء إليه بمساعدة الإمام قائم القيامة؟ لكنه كان فى الملأ الأعلى وهذا على الأرض ولكن لماذا الشك؟ فزمرد نفسها موجودة أيضا ولو أن هذه حديقة دنيوية فكيف جاءت هنا وقد كتبت لى بنفسها أنها فى الجنة ، وأنها تتنزه فى الفردوس الأعلى وما فائدة الكذب فى النهاية؟ بعد ذلك اتجه خارج القصر وبدأ يتطلع بغيظ وأمعن النظر فى أنحاء الحديقة وفى أرجاء القصر، فرأى كل شىء على حاله كما رآه من قبل ؛ فقد كانت جدران القصور مرصعة بنفس الجواهر التى رآها من قبل كما كانت الخمائل بنفس لونها وصورتها، وكانت الشوارع والممرات ملونة وخلابة ، وكانت العروش والتيجان الذهبية والفضية على أبهتها السابقة، وكانت الأنهار تنساب بمياهها المتموجة ؛ نعم هناك نقص فى شىء واحد فقط هو أن الأغنية لم تكن تُسمع والمطرب لم يكن موجودا، لكنه عندما سمع آيات الترحيب القرآنية نفسها على لسان

الطيور، بدأ الشك يزول عنه، وبينما هو فى تردد إذا بطائر قد أحضر تفاحة نضرة طازجة فى منقاره وألقى بها أمامه، وبعد أن تنبه قال هذه أيضا من علامات الفردوس الأعلى؛ تبلبلت أفكار حسين بشكل عجيب، ولم يجد حلاً لهذا اللغز ، وبينما هو كذلك إذا بزمرد قد قدمت إليه بعد أن استأذنت من الملكة، وما أن رأى صورتها الفاتنة الجذابة حتى بدأ قلبه يخفق من فرط العاطفة وسيطرت عواطف الحب عليه تدريجيا فخرج وأسرع لاستقبالها وعانق كلاهما الآخر.

حسين: يا حبيبتى زمرد بالله عليك أخبرينى فى أى عالم أكون؟ وما هذا الذى أراه؟

زمرد: (مبتسمة) أنت ترى نفس الذى رأيته ذات مرة.

حسين: هذا يعنى أننى فى الملأ الأعلى.

زمرد: حقا هو ما تراه بقضه وقضيضه ، وبناء على هذا يجب أن نطلق على هذا المكان الملأ الأعلى.

حسين: تقولين يجب؟ فهل هذا ليس حقيقيا؟

زمرد: عليك أن تستفتى قلبك هل هذا المكان على الأرض أم فى السماء؟

حسين: هل أنت على الأرض.

زمرد: اعتبرنى على الأرض.

حسين: ولكن كيف لى أفسر وجود قبرك وكيفية وصول رسائلك حتى هنا، والشىء الذى أفكر فيه من بين كل تلك الأمور هو تأكيد هذا

الأمر ؛ أى أن هناك عالما آخر والسعـادة والسرور هناك أسمى من السعادة الدنيوية.

وبينما هما يتحدثان دخلا القـصر وقالت زمرد: لا ، السعادة هنا بلا شك أسمى من جميع مبـاهج الدنيا ، ولكن عليك ألا تفهم أنك خرجت من الدنيا وجئت إلى مكان آخر.

حسين: وماذا عن كل الأحداث التى مرت؟ ما هو رأيك عنها؟

زمرد: كنت مضطرة إليها ، وكنت بلا حيلة ، وما حدث كان نتيجة سذاجتك.

حسـين: أنا لم أفهم معنى كلامك.

زمـرد: لا تضطرب فـسـوف أشرح لـك كل شىء ، ولكن للأسف فكلما فهمت أكثر كلما اضطربت أكثر وقد لا تتمالك نفسك.

حسين: إننى الآن يا زمرد أشك كـذلك فى شكلك وصورتك؛ فهل أنت زمرد نفسها التى كانت قد أتت معى من قبل؟

ضحكت زمرد بمجرد أن سمـعت حسين ينطق بهذا السؤال الساذج، ولكنها تماسكت ونظرت إليه بنظرات ذات دلال وبطريقة تحمل معان جذابة ثم قالت: "لا أنا واحدة أخرى".

لم يسمع حسين مـثل هذه الإجابة من قبل، وأمسك بيـد زمرد قائلاً بعد أن نظر إليها بإمـعان، وهل هذا هو نفس الجسم النورانى أم أنه هيكل مادى مثل جسمى؟

زمرد: تكلم بالعقل، فـأنت فاقد للوعى تماما، وقد تحطم لغـز كبير جدا من أمام عـينيك، ولهذا فإن حواسك لا يقـر لها قرار من أثر ذلك؛

فعد إلى صوابك قليلاً ، وتحدث حـديث العقلاء حتى أقص عليك القصة كاملة والسر كله.

حسين: حبيبتى زمرد، قصى علىّ بـسرعة، فقد جعلنى جهلى وعدم درايتى مجنونا .

زمرد: اسـمع، إن الحـور الذين رأيناهم أنا وأنت فى ذلك الوادى، ليسوا حورا، بل كانوا حور تلك الجنة المزيفة.

حسين:(بعد أن أسكتته الدهشة) جنة مزيفة، أهذه لم تكن الجنة التى وعد بها المؤمنون؟

زمرد:اصبر قليـلاً، نعم أنت كنت فاقد الوعى هناك، وأخذونى إلى هنا، أنا لم أمت ولم أستشهد، ولكنهم أحدثوا تغييرا طفيفا على قبر أخى قبل عودتهم لكى تتأكد من موتى، وكـان الوقت (ليلاً) وبعد أن استفسروا منى حفـروا اسمى بجانب اسم أخى، وكان الهـدف من ذلك فقط هو أن تيأس وترحل بعد أن تتخلى عن التـفكير فىّ وتحكى لكل الذين تلتقى بهم عن الحالة الخطيرة لهذا الوادى ، وعندئذ يستقر الخوف من الحور فى قلب كل شخص.

حـسين: إذن كنت على قـيد الحـياة! قـال هذا وبدأ ينظر إلى زمـرد بإمعان من رأسها حتى أخمص قدميها.

زمرد: (بغـضب وثورة) لا، لقد أصبحت جنيـة ، لم يجب حسين عليها قليـلاً، وتوقفت زمرد برهة ثم تابعت حديثها: "لقـد خدعت وبعد حضورى هنا ضمونى إلى أولـئك النساء اللاتى يطلق عليهن هنا الحور ثم اتضح لى بعـد عـدة أيام من البحث والتـحـقيق أنك تجـلس على قبـرى

وأصبحت مجاورا له ولا تفكر في الرحيل ، وفي النهاية فكروا هنا كيف يجعلونك تترك هذا الوادي، فرأى أكثرهم أنه يجب قتلك ، ولكن بالصدفة كانت لدى حيلة مؤثرة ونال اقتراحي القبول وهو أن تُنصح بالعودة لموطنك تاركًا الوادي بحيث لا يبدو لأحد صلة بذلك ولا يحدث هناك شك في أمرنا ، ويكون فراقا أبديًا، وكانت رسالتي الأولى نتيجة لهذا الاقتراح فطلبت منك تنفيذ وصيتي وقد أملوا عليّ هذه الرسالة، بعد أن استفسروا مني عن هذه المعلومات وأُعد مسودة بمضمونها ، ولكنني يا حسين كنت أبكي بكاءً صامتا أثناء كتابة هذا الخطاب ؛ لأنني كنت أعلم أنني أعد بنفسي العدة لفراقك فراقًا أبديًا ، حسنا، لقد أُرسل هذا الخطاب إليك لكن بعد (بضعة أيام) عندما استفسروا عنك اتضح لهم أنك جالس في مكانك لم تغير شيئا من إرادتك.

حسين: لا شك في ذلك؛ فأنا أموت ولا أبارح ذلك المكان.

زمرد: وعندما اتضح ذلك بدأ هؤلاء الناس يفكرون مرة أخرى، وكنت أردد بيني وبين نفسي: ماذا أفعل الآن؟ بعد أن فشلت تلك الحيلة، عندها لم تخطر على بالي حيلة أخرى، وخشيت أن يغضبوا ومن ثم يدبرون قتلك، وبالصدفة جاء خبر في تلك الأيام أن الإمام نجم الدين النيسابوري كان يعظ ضد الباطنية ، وكانوا يدبرون الخطط لكي يقتلوه على يد أحد الفدائيين، ومن سوء حظي أو جزاء عملي أنني قلت لهم إنه عمك وأستاذك ومرشدك. وما إن وصل هذا الخبر إلى مسامع الملك خورشاه الذي كان هناك حتى فكر في أنه من الأفضل لو يقتل هذا الإمام العظيم على يدك، وهكذا سوف يتضح كم يلقى مذهب الباطنية بأثره العميق على القلوب لدرجة أن الإنسان لا يكترث بأقاربه وأصدقائه وحتى

أستاذه ومرشده، إن قـتله بخنجرك يمكن أن يؤكد تلك الأمور وهى أن ابن الأخ يقتل الـعم، والتلميـذ يقتل الأستـاذ، والمريد يقتل المرشـد بلا تردد ويعتبر هذا صوابًا.

وما أن قـالت زمرد هذا حـتى زفر حسين آهة باردة وبـدأ يقول بعين دامعة: "واآسـفاه! كم من ظلم ومن ذنب ارتكبتـه فى حق المرشد العطوف والعارف باللـه الكبير، لقـد خضـبت يدى بدماء مثل هـذا المرشد الزاهد والمشفق الكبير والإمام المعصوم شـوقا إليك يا زمرد وبسبب نصيحتك وإلا ما تجرأت على مثل هذا الظلم العظيم.

زمـرد: يا حـسين لقـد قلت لـك من قـبل وأقـول لك الآن أيضـا لاتشـركنى فى هذا الذنب إن فـرائصى ترتعـد عندمـا يأتى ذكـره، ولكن حـسنا، دع عنك هذا الحـديث فلا يسـتطيع أحـد أن يمنع المواقع، وأنا إن كنت قد هيأتك لهذا العمـل فقد كنت بلا حول ولا قوة ، وأنت إن كنت قد استعددت له فقد كنت فى غير وعيك.

حسين: (بعد أن ضـرب صدره بقوة) لكن واآسفـاه يا زمرد فإن الله لن يقبل هذا العذر ، وأرى حـقا - سواء كنت فى وعى أو بدون وعى - أننى اقـتـرفت ذنـبـا عظيـمـا ، ولكن الشـوق إليـك دفـعنى مـرارا إلى الاستعداد..

زمرد: (بعـد أن قطعت الحديث من الاضطراب) يا لـهف نفسى..! بالله عليك يا حسين لا تأخذنى معك (وبعد أن ذرفت الدموع) قالت كنت مضطرة إلى مـا فعلت كنت بلا حول ولا قوة وللأسف فـإننى كنت نفسى أسمع صوت اللعنة من قلبى والآن أسمع نفس الشىء منك أيضا.

وبعد أن قالت زمرد هذا بدأت فى العويل وبعفوية قام حسين بسرعة وجفف دموعها وقال: "يا زمردا لا شك أنك بلا ذنب ولو أننى اطلعت على قلبك لصفحت عنك فأخبرينى ماذا حدث بعد ذلك؟

زمرد: (بعد أن جففت دموعها بالمنديل) ثم وجدت الخطاب الثانى والذى نصحتك فيه بالتعبد لمدة أربعين يوما فى جب مدينة الخليل وغار جبل الجودى ثم الذهاب إلى حلب للقاء الشيخ على وجودى ، وهكذا أرسلت هذا الخطاب أيضا فقد سلمته بعد أن كتبت مسودته بيدى ثم وضعوه على قبرى.

حسين: لكن إذا كان الأمر إلى هذا الحد وقتل الإمام نجم الدين النيسابورى، فلماذا كل هذه الحيرة ؟ ولماذا ظهرت كل هذه الصعوبات عديمة الفائدة فى طريقى؟

زمرد: لأنك أبديت فى شوقك الاضطراب ونفاد الصبر، فلو أنك انتظرت عاما دون أن تتعبد أربعين يوما وبدون أن تكون عند على وجودى لما تهيأت لارتكاب مثل هذه الذنوب العظيمة مطلقا.

حسين: لقد كان فى قلبى شوق إليك بحيث إننى كنت مستعدا لتنفيذ أى أمر تطلبينه.

زمرد: نعم لم يكن معلوما لهم أنك أحمق إلى هذا الحد ، وأنك ضعيف إلى هذا القدر.

حسين: ولكن كيف أقول يا زمردا أنا لم أصدق كلامك، ولقد رأيت بأم رأسي مثل هذه الأمور وهى أسمى من العقل البشري إلى هذا القدر بحيث لا أجرأ بأى شكل على إنكار زهد أولئك الناس. وقد مات

الحماران اللذان امتطيتهما حتى هنا، ولكننى وجدت حمارا جديدا قويا مربوطا فى تلك الشجرة ، وكان جميلاً قويا سريعا إلى حد كبير ، وكنت أعتبره فى ذلك الوقت هبة من عند الله جاء لى بخاصة حتى أمتطيه.

زمرد: لقد أرسل ذلك الحمار من هنا فى ذلك الوقت الذى وضع على قبرى خطاب باسمك ، وعندئذ وبعد أن أرسل ذلك الحمار من طريق آخر علقوه بهذه الشجرة.

سمع حسين هذا الجواب بدهشة وقال "عجبا!" ولكن شكوكي لم تنته بعد، وفى النهاية كيف علم الشيخ وجودى بقصتى كاملة وهو على مسافة ألف ميل من هنا.

زمرد: لقد أخبر بجميع الأحداث مع ذهابك وقد كتبوا له أنك مريد الإمام نجم الدين وتلميذه وابن أخيه ، وأنك قمت بقتله وقبل الوصول هناك سوف تتعبد أربعين يوما فى جب مدينة الخليل وغار جبل الجودى، وعلم كل هذه الأمور بوسيلة أخرى، ولكنه جعلك تفتتن به بعد أن قص عليك من أمر الكرامات وعلم الغيب.

كان حسين فى غاية الدهشة والعجب، وغرق فى بحر الحيرة ، ولم يجد لها مفرا بأى شكل من الأشكال، بينما صمتت زمرد بعد أن أكملت كلامها، انغمس حسين فى التفكير وفى النهاية رفع عينيه من فرط دهشته وحيرته ونظر وقال: يا زمردا أخبرينى بصدق هل كل هذه الأمور التى تقولينها حقيقة أم مازلت تخدعيننى؟ إن كل حياتى الماضية تبدو كحلم وأنا أشك فى لقائى معك الآن وأعتبر كل هذه الأحاديث حلما، ثم جميع الأحداث التى حدثت بعد فراقى عنك، فهل أنا فى الحقيقة بهذه الدرجة

من الغبـاء حتى أبتلى بمثل ذلك الخداع والمكر الـعظيم؛ ولكن يا زمرد إذا كانت كل هذه الأمور مجرد تخـمين وسوء ظن فإن "على وجودى" يعلم تلك القصة التى أخبـرتينى بها، فكيف علم أنه أُلقى القبض علىَّ على يد مجاورى مدينة الخليل وهربت بعد أن تركتهم بمجىء الباطنية المفاجئ.

زمرد: أنت يا حسين فى الحقيقة مغفل كبير، وأنا أفهم السبب وأنت لا تسـتطيع أن تفهم ، ولكنك فـى الحقـيقـة مضطرب ، وقـد تأثر قلبك وعقـلك بعدة أمـور إلى هذا الحد بحـيث بات من الصعب عليـك إخراج تلك الأمور من عقلك، ألا تعلم أن الباطنيـة ينتشرون فى كل أنحاء الدنيا ، وتمتد شباك مؤامراتهم فى كل قرية وفى كل بلدة صـغيرة، لقد بقيت عاما مع وجودى ، ولم يكن من الممكن ألا يعرف حكايتك.

حسـين: نعم، لقد رأيت هذا بلا شك، فـالمؤمنون به منتشـرون فى جميع أنحاء العالم ، ويأتون أيضا لزيارته مرة واحدة كل سنة ، وقد رأيت أن هؤلاء الناس يلتقون معه فى الليل فقط وبشكل سري ثم ينصرفون.

زمرد: تستطيع أن تدرك من هذا كم يوجـد من وسائل وطرق عديدة لتوصـيل الأخبار إلى مـسامعـه، ففى الوقت الذى تركت فـيه هذا الوادى ومنذ ذلك الحين وحتى وصـولك فى النهاية إلى حلب وأنت تحت المراقـبة فى كل منزل وفى كل مكان ، وكـانت أخـبارك اليـوميـة تصل إلى على وجودى، وليس هذا قـاصرا عليك فحـسب بل إن الشخص الذى يقع فى قبضة الباطنية يوضع تحت المراقبة هكذا، ومن ثم فأى عجب فى هذا الأمر لو علم قصة أسرك فى مدينة الخليل.

حسين: أنا لست منـدهشا من هذا ، وإنما الدهشة فـيما كـان يقوله الشيخ فبإشارة منه هجم الباطنية وحررونى من الأسر.

زمرد: ليس فى ذلك مجال للدهشة، ولاشك أن وجودى أمر أنصاره بالهجوم ليخلصك منهم.

حسين: كيف أمرهم؟ وما بين وصول خبر أسرى والأمر بالهجوم فترة زمنية قصيرة ؛ فقد وقعت الواقعة هناك فى الليلة التى كنت خارجا فيها وقبيل خروجى قتل حاكم الخليل على يد الباطنية ومن ثم وقعت فى الأسر ، ولم يكن قد انقضى يوم واحد بأكمله حتى دخلت المدينة مجموعة كبيرة من عنده، فكيف يمكن إنجاز كل تلك الأعمال بهذه السرعة.

زمرد: (بعد قليل من التأمل) أى صعوبة فى هذا؟ وقد علم الباطنية فى أى يوم نزلت فيه إلى الجب وفى أى يوم ستخرج ، ومن الضرورى أنك ستواجه هذه الصعوبات ، وفى ذلك الوقت أخبروا الشيخ على وجودى بأن يأمر بالمساعدة وكانوا يحسبون اليوم المحدد وكان اليوم الأربعون بالضبط هو ذلك اليوم الذى كنت خارجا فيه ' فقتلوا حاكم المدينة حتى يفكر الناس فى شيء آخر وتخرج أنت فى صمت وتهرب ، ولكن عندما وصلتهم الأخبار بأنه ليس هناك فائدة تذكر من قتل حاكم المدينة وأنك أسرت على يد المجاورين عندئذ قاموا بالهجوم وأحدثوا الفوضى والاضطراب فى المدينة حتى تتحرر وتسنح لك الفرصة للهروب.

حسين: (بعد أن زفر آهة باردة بقوة) واآسفاه يا زمرد أكان كل هذا كذبا ؟ كيف أقول إن الشيخ على وجودى شخص مكار إلى هذا الحد؟ يا زمرد إن كراماته وعلمه للغيب علاوة على علمه وفضله كما أن كل كلمة من كلماته تفوح منها وحدة رموز المعرفة والزهد ، ولكنى لا أجرؤ على سوء الظن به، فعالم وفاضل كبير إلى هذا الحد ومتوقد الذكاء كذلك

ويعيد النظر فى نفس الوقت ويكون مخادعا كبيرا إلى هذا الحد؟ لقد بقيت فى صحبة الإمام نجم الدين ولكن يا حبيبتى زمرد أقول حقا إن الأمر الذى نصحنى فيه الشيخ على وجودى قد أزال الشكوك من قلبى بسهولة لا تعادل مثقال ذرة عند الإمام نجم الدين.

زمرد: لا شك ربما يكون كذلك ، ولكن الأمر هو أن الإمام نجم الدين كان يقوله ببساطة ما يرد على قلبه وبلا تكلف ؛ إنه لم يحاول مطلقا التأثير فينا وفى تكويننا ، بينما كل نقطة عند الشيخ على وجودى هادفة للتأثير على القلب ، وكل فقرة من فقراته كلها رياء ، وهذا هو الفرق بين الصدق والكذب ، ولهذا السبب دائما كانت القاعدة هى أن أحاديث الخداع أكثر جاذبية وأكثر تأثيرا ورسوخا فى القلب من أحاديث المرء الصادقة البسيطة ومن المؤكد أنك بعد أن التقيت بالشيخ على وجودى اكتسبت درسا عظيما جدا فى الزهد.

حسين: (بعد أن ضرب على صدره بقوة): نعم تعلمت درساً جيدا، لكن حسنا ؛ فحين خضعت لتأثر السحر صرت أنا أحمق إنسان فى الدنيا وأكثر الناس كفرا وظلما، وللأسف سوف أندم طوال العمر ولكن يا زمرد ماذا أقول؟ فكل هذه الأمور حتى الآن تبدو حلما وصورة طور معنى وقصره النورانى لا تزال تدور أمام عينى حتى الآن.

زمرد: نعم هو أكبر عضو فى هذا المذهب - وقد التقى ملك الموت حتى ذلك الوقت بشخصين فقط ، ولم يكن من نصيب هذا المذهب الباطنى نقيب أو داعية أفضل من طور معنى وعلى وجودى والذى يذكر هنا باسم الوادى الأيمن بالمؤامرات الناجحة لكليهما قتل مئات الأمراء والوزراء والعلماء والفضلاء، ولأنهما يعلمان حقيقة الجنة والملأ الأعلى

جيدا ، لهذا يخدعون الناس ، يضللونهم بالحديث عن الجنة ، وكان طور معنى يلتقى بالناس كذلك ، ولكن الوادى الأيمن أصاب هذه الدنيا بالخراب الكثير وربما لم يلحق أحد بالدين ضررا مثل ما ألحق هذا الشخص.

حسين: فهل قصر طور معنى الذى تحت الأرض قد شيد لخداع الناس أيضا وليس به أى معجزة طبيعية مثل الجنة.

زمرد: (مبتسمة): هل لديك شك الآن؟

حسين: ليس هناك شك يا حبيبتى زمرد، فكل أحاديثك صادقة، ولكن هل تخبرينى كيف تمر تلك الحقائق هكذا أمام الأعين، وكيف استمعت تلك الآذان إلى الكلمات الخادعة، حسنا أخبرينى كيف وصلت هنا من الغار بينما قصر طور معنى فى أصفهان؟

زمرد: لأن اسم آلموت معروف إلى حد ما وقد أثار بعض الناس ؛ لذا فإن الناس الذين يفكرون هكذا (يحضرون) إلى هنا عن طريق أصفهان وطور معنى، وتنفذ هذه الحيلة (لإخفاء) كل الأسرار حيث يفقدهم طور معنى الوعى ويركبهم على قطيع من الإبل ويوصلهم إلى آلموت عن طريق جماعة من الجمالين الموثوق بهم والحافظين للأسرار، وعندما يعود الوعى لهؤلاء الناس فى أى موضع أو مسافة ليلاً فإنهم يسقونهم ويطعمونهم شيئا ما ثم يسيرون بعد أن يفقدوا الوعى.

حسين: (بعد أن انتبه) أنا بنفسى أحيانا كنت فى غابة وأحيانا فى الجبال ، فكأننى هكذا سرت من أصفهان قاطعا المسافة إلى آلموت.

زمرد: وماذا؟

حسين: (بدهشة) وكيف يُفقد هؤلاء الناس الإنسان بلا وعى؟

زمرد: عن طريق أوراق الحشيش والتى يمزجونها أحياناً فى الحلوى وفى الطعام ، وأحيانا يسقونها لهم فى عصير.

حسين: (بلا صبر) إذن ، كان كأس الشراب الذى سقانى إياه طور معنى حشيشا.

زمرد: بلا شك.

حسين: واآسفاه لقد تعاطيت المسكرات أيضا، وليس من ذنب إلا واقترفته، لا تغضبى يا زمرد؛ لأن الأمل فى وصالك فقط كان قد أعمانى وإلا لما كنت مجنونا وبلا عقل إلى هذا الحد وحكاية حبك فى هذه العلامة التى نتجت عن تقبيلك إياى فى جبهتى فكانت تلك القبلة أحب عندى من روحى وقلبى، وكنت أريد أن أحمل علامة القبلة هذه لأسلى بها قلبى ، ولكن لا يمكن لهذه الشفاه المشتاقة أن تصل إلى هناك بأى طريقة، وكانت زمرد قد اعتراها قليل من الخجل من حديث حسين حتى ظلت مطرقة العينين لفترة من الوقت بعد أن لاذت بالصمت ، وبعد عدة دقائق تغلبت على عواطف الخجل وقالت: يا حسين أنا لم أقبِّل أى شخص ولا صارت قبلتى علامة على جسم أحد، وهل أنا بلا حياء إلى هذا الحد.

حسين : (بعد أن قطع الحديث) حسنا، لعل أحدا آخر سواكِ قبلنى!! فأنا لم يمتد فمى لأحد.

زمرد : (مطرقة النظرات) لا تحدثنى الآن فى أحاديث مخجلة، فقد خُدعت فلا هذه علامة قبلة ولا رمزاً للحب بل هى العلامة التى تحدث نتيجة الكى بالنار على جباه من يأتون بهم إلى هذه الجنة.

حسين : كنت تذكرت إذا كُويت .

زمرد: إن هذا الكى ربما تم بعد فقد الوعى ، وعندما كنت تسير فى ذلك الوقت من آلموت إلى أصفهان.

حسين : (بعـد أن ضرب صـدره بقوة) واآسفـاه ذهبت لقطف الورد فأحضرت الشوك.

وظل حسين بعد هذا لفترة يتأسف من صميم قلبه على حاله ثم فزع مرة واحدة قـائلاً: "زمرد للأسف أنا المخدوع الأكبر ؛ فلمـاذا لم تشيرى علىّ فى ذلك الوقت عندما أحضرت عندك، وكنت آنذاك تذكريننى كذلك أن كل هذه الأشياء هى الملأ الأعلى".

اغرورقت عينا زمرد بعد أن سمعت هذا وقالت بصوت متألم: هكذا كتب فى حظى أن أخدعك.

بدأ قلب حسين كأنه أصيب بعد أن رأى زمرد دامعة حزينة ، وبشكل تلقائى جفف دموع محبوبته الوفية ، وبدأ يقول: يا زمرد لم أكن أتخيل أن قلبك سوف يُصدم من هذا السؤال، حسنا أنا ماضٍ وأعـدك بألا أسألك مثل هذا الكلام مطلقا.

زمرد : لقد رششت الملح على الجرح ونكأته ؛ إنك فى ذلك الوقت سألت عن كل شىء ولم تسأل عن هذا، لقد تحررت ولم تدر ماذا دار فى رأس سيئة الحظ، لقد كـنت حرا طليقـا تتجول فى الدنـيا وكنت أنا فى السـجن للأسف ومـاذا أقـول وأى عذاب ابتليـت به؟ لم يكن بإرادتى أن أبوح بالسر لأحد ولو تلميحا، نطـقت زمرد بهذه العبارة ثم انخرطت فى البكاء والعويل.

حسين : (بعد أن عانقها وجـفف دموعها) لا ريب أنها غلطتى وهى أننى نسيت السـؤال عن هذه الأمور، لكننى أقـول بصـدق إننى فى ذلك الوقت لم أسأل عن أى أمر مدبر، فالذى سألت عنه لم أقصد سؤالك عنه نتيـجة غيـابى بل كنت فى دهشة وبلا وعى؛ فـاصفحى عنى لو كـان قد حدث تقصير عن وعى.

زمرد : حسنا، إن كنت قد أثرت هذه القصـة فاستمع، هذه الحديقة فى عقيـدة الباطنية والفدائيين هى مـوطن السرور ، هى الملأ الأعلى وجنة الفردوس ، والحقيـقة أن ملوك آلموت قد جعلوا منها موطناً ومثـالاً للمتعة وقد تضاعف بهـاؤها ورونقها يوما بعـد يوم نتيجة للجهـد المتواصل طيلة مائة وخمسين سنة، ولأنهـا كانت تستخدم فى عمل دينى لهـذا اجتهد فى إعداد كل شىء بحيث تكفى روعـته وجاذبيته فى مضاعـفة عزيمة الإنسان وهمتـه ومحو دهشتـه، فهذا القـصر الذى تراه ويبدو لك أنه من الفـضة والذهب واللؤلؤ والمرجان هـو فقط من الذهب والفضـة وقد اصطبغ بلون الجواهر ونفس الشىء بالنسبة للآجـر والطوب الذى شيدوا منه القصور فى كل مكان، ولا شك أنه تم شق الأنـهار بصـعـوبة بالغـة، ولكن جـريان الأنهار والشلالات من الجـبال كان يتم بشكل طبيـعى، وكذلك هذا النهر العظيم الذى فى وسط هذه الحديقة والذى شيِّد عليـه جسر ذهبى هو نفسه نهر ديرنجان الذى قضيت فترات من الزمن تبكى وتنوح على شاطئه.

حسين : (بدهشة) هو نفس النهر؟

زمرد: نفـسـه، هذا النهـر يأتى إلى هنا من القصـر الملكى، ومن هنا حيث تكون مثل هذه الشـعاب الجبلية التى من المستـحيل المرور منها يصل هذا الوادى البهيج.

حسين: كيف كان هذا النور يا زمرد والذى أخبرتنى بأنه النور الإلهى.

زمرد: هذه الأنوار كانت حول الجبال وفى الليل ينبعث منها نور قوى وساطع مثل نور الأقمار بعد أن ينعكس على المرايا والزجاج فيقوى و يسطع أكثر، وكان هذا النور يعد فقط فى تلك الأوقات عندما يُؤتى بشخص ما إلى هنا لتجنيده ، و فى ذلك الوقت يؤمر الجميع عندما يتلألأ ذلك النور بقوه أن يصيحوا قائلين: "هذا ما وعدنى ربى"[1] ، وأن تملأ أحواض الخمر واللبن أيضا بمناسبة هذه الزيارة ويعرض بهذه المناسبة أيضاً جلوس الناس على الأسرّة وسقاية الغلمان للخمر وتنزههم فى سعادة خالصة وطمأنينة.

حسين: و ماذا عن تغريد الطيور وقطفها للفاكهة وإحضارها.

زمرد: و أى أمر هام فى هذا؟ تترك عدة طيور أليفة مروّضة دربت على إحضار الفاكهة بدون إزعاج ووضعها أمام الناس ثم تطير عائدة، وهكذا الطيور هنا تحفظ هذه الآية من القرآن الكريم "سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين"[2] ويرددونها فى كل وقت.

حسين: خدعة كبرى! حسنا هل يستطيع أن يفهم أحد؟ يا زمرد لقد نسيت قص حكايتك بعد أن أخبرتينى بسر الجنة.

زمرد: هل تسال عن مصيبتى؟ لقد تحملت جميع تلك الصعاب ولو حدث شيء لكنت تمرغت الآن فى التراب.

(١) هكذا فى الأصل.
(٢) هكذا فى الأصل.

حسين: لا يا حبيبتى زمرد لا تخرجى مثل هذا الكلام من فمك فيصدم قلبى، ألف شكر لله فقد انقشعت هذه المصائب ، وها نحن يعانق أحدنا الآخر ثانية.

زمرد: كنت قد أحضرت فى الأصل لجعلى حورية، فخورشاه ورفاقه من أهل البلاط وجميع الحوريات هنا يبحثون دائما عن أى امرأة جميلة ليضاعفوا بجمالها وحسنها الفتنة والجاذبية فى الجنة، فعندما جئت بين يدى خورشاه ولسوء حظى تأكد أننى جميلة أكثر من العادة وأتفوق على جميع حوريات الجنة.

وأراد أن يجعلنى لنفسه بشكل خاص ، ولكننى بعد سماع هذا الخبر صرت مضطربة جدا ، وفى النهاية قررت بينى وبين نفسي أن أنتحر و لا أقبل هذه المهانة، فى البداية أخذوا يغروننى بكل الطرق، فقيل لى إننى سوف أضع التاج على رأسى بعد أن أكون زوجته ، وأننى سوف أصبح ملكة عظيمة الجاه ، ولكننى لم أوافق بأى حال ، وعندما يئسوا من إرضائى، استعدوا لقهرى وبدأوا فى إيذائى وإيلامى بكافة الوسائل حتى انقضى على هذه الحال شهران ونصف شهر كنت أنتظر خلالها الموت فى كل ساعة.

بعد أن سمع حسين معاناة ووفاء محبوبته الوفية فاضت عينيه بالدموع و تأوه آهة باردة ، و قال : "لقد تحملت يا زمرد معاناة عظيمة من أجلى".

زمرد: لم تكن هذه معاناة، بل كنت أعتبرها راحة وطمأنينة ، ولهذا نجوت من هتك العرض والمهانة ، وكان خورشاه قد عزم على قتلى غاضبا

بسبب فشله في إقناعي ، لكن أحد الأصدقاء مصادفة أشار عليه بأن البطش والظلم والجور لا يولد الحب في قلب الإنسان ثم قال له: وربما من الأفضل أن تترك زمرد لعدة أيام في أحد قصور الجنة ، وعندما تعيش هناك فترة من الزمن في راحة وسعادة فإنها سوف تنسى الحزن والغم ، وسوف تستعد هي بنفسها لأن تصبح معشوقتك بعد أن تتغلب عليها في النهاية عواطف الشباب وقد لاقى هذا الرأى استحسانا لديه ، وعندئذ أخذت من قصره وأودعت في هذا القصر الدرى وفي مثل هذا المكان الحصين لم يكن خورشاه يتخيل أن تصل إليه حتى الطيور الجارحة، وكان من المستحيل على أى شخص أن يدخله وكان الفدائي الذى يحضرونه من أجل تدريبه يظل تحت الملاحظة والمراقبة في كل الأوقات ويجتهدون حتى لا أستطيع أن ألتقى بهم أو أتحدث معهم ولو حديثا مقتضبًا، وعندما التقيت بك كانت تلك الأمور في ذلك الوقت تحت المراقبة الكاملة ، ولم يكن هناك أى مجال سوى تسليتك وإغرائك ، واستطعت أن أكون معك بلا تكلف وكان كل شيء بالنسبة لي سهل ، وكنت أقضى الليل والنهار في بهجة وسعادة ، وطبقا لتوجيه خورشاه فإن جميع الحور هنا صرن جوارى لى وكن يجتهدن في تسليتي كل وقت ، وكانت يا حسين كل أسباب المتعة موجودة ولكن قلبي لم يهدأ بأى حال من الأحوال، وظلت صورتك أمام عيني كل ساعة وأفكر في حيل مختلفة لكى أهرب من هنا بأى طريقة ، وكانوا يتشاورون في تلك الأيام في أمر قتلى وكانت دمائي تتجمد كل يوم ، وذات ليلة رأيت في الحلم كأننى أقف في ميدان قفر وفجأة ظهرت أمامي والتقيت بي وأخذنا نجرى على غير هدى ، وفجأة خرج شخص ما كان مختبئا في شجرة وضربك بسكين في صدرك فَجُرحت وأمسكت بصدرك ووقفت ، وكنت أبكى وأصرخ بلا توقف،

وأجرى نحـوك ، وفى هذه الحالة مـن الصراخ والعـويل فتحت عـينى ، والآن أنىّ لى أن أستقر وقد قضيت بقية الليل فى بكاء مستمر وجلسـت فى الصباح مـضطربة حيرانة حتى قـامت إحدى الحوريات هنا تسـمى مرجان بالتسرية عنى إلى حـد ما ، وهى التى كانت تأتى عندى أحيـانا لتجاذب أطراف الحديث سويا ، وبعد الحـديث هنا وهناك قالت: "يا زمرد أتريدين أن تسمعى شـيئا آخر، إن ذلك الشاب حـسين الذى كان معك يجلس فى الوادى حتى الآن مجاورا لقبرك".

وكـان يجب على التـذرع بالصـبر والـتحـمل فى هـذه المناسـبة ، ولكنى لم أطق صبـراً وأخذت آهة باردة بعفوية وقلت: حـسين حتى الآن هناك؟

مرجـان: نعم ، ولكن بات من المؤكد أنهم سيـخلون المكان منه فى يوم أو يومين فاضطربت وتساءلت: لماذا؟

مرجان: لأننا سوف نتنزه فى هذا المكان؟ ولهذا السبب يريد خورشاه ألا يظل هناك مثل ذلك الشخص الذى يعرف سرنا، وكان يظن فى البداية بالنسبة لصديقك الشاب أنه سوف يمضى إلى حال سبيله بعد أن دب اليأس فى قلبه تمامـا وقد بنى قبرك لهذا الـسـبب وحفر اسمك على الحـجر حتى يتأكد حسين من موتك ويرجع ويمنع الناس من المجىء هنا ، ولكن فشلت هذه الحيلة، لهذا اضطر الآن إلى تنفيذ هذا الاقتراح ، وهكذا سوف ينجز هذا العمل.

يا حسين أنا لا أستطيع أن أخبرك كيف كان حال قلبى بمجرد أن سمعت هذه الجملة، اضطربت وقلت بعفوية كاملة: فليقتلنى أنا أيضا.

وبعـد أن رأت مرجـان دهشتي وفـقداني للوعي قـالت: لو تريدين إنقاذه فعليك بعمل شيء وهو أن تذهبي أمام خورشاه بنفسك وتتشفعي له ولم أوافق مطلقا على مثل هذا الأمـر ، لكني كنت أفكر فقط في أن أنقذ روحك طوعـا أو كرها فـذهبت وعندما ابـتسم أردت الكلام فـقلت ببكاء وتضرع بالله عليك لا تودي بحـياة هذا الشاب، فاسـتمع إلى طلبي ونظر إليّ بعين الغضـب بعد أن تفحـصني مليا بملامـحه الجامـدة القوية ؛ لأن علاقـتي بك قد صـدمت قلبه صـدمة كـبيـرة و بدأ السؤال بصـوت جد غضبان: ماذا هو بالنسبة لك؟

فقلت : هو حبيبي، تربيت معه ودرست مـعه بعد أن كبرت وعقدنا النية على الزواج ، ولهذا السبب أنا وحيدة ؛ فهو مالك للنفس والنفيس.

خورشاه: ألم تتزوجيه حتى الآن؟

نظرت إلى أسفل وأجبت "لا" .

بعد أن سمع خـورشاه هذه الإجابة، نظر إليّ بعيون فاحـصة وأساء الظن بي وسـأل: ولكنك تقيمين مـعه مـثل هذه العلاقـات قبل الزواج، تسافرين مـعه وتتركين الأهل والمنزل، ومن هنا فهـذا دليل على أن شرفك قد تلوث.

أصابني الخجل الشـديد عند سماع كلامـه ولم تخرج من لساني أي كلمة، ولكنني فقط من أجل إنقاذ روحي وروحك تجـرأت واستمرأت قلة الحياء وأجبـته: لقد خرجت أولا لقراءة الفاتحة علـى قبر أخي، وثانيا من أجل الحج، حـقـا لا شك كنت أريد أن أعـقـد النكاح بمجـرد وصـولي قزوين.

خورشـاه: حسنا، تؤدين مـراسم الزواج فى قزوين ، ولكنـكما فى الغالب أقمتما أولاً فيما بينكما علاقات الزوج والزوجة.

فتـملكنى الخجل على هذا السـؤال وتصبب جسـمى عـرقا وأطرقت وأغمضت عينى خـجلاً وأجبته قائلة: "لا لم يعـتر شرفى نقص ، وبمجرد أن سمع خورشاه هذا أخذ يقول هائجا بعفوية، اغربى عن وجهى.

فشكرا لـله على أن جسمـى الطاهر الرقيق لم تمسـسه يد بشـر حتى الآن.

كنت قريبة منه فـأخذ يعانقنى ولكنى كففتـه بكلتا يدي ثم، سقطت على الأرض عند أقـدامه وبدأت أقـول: "لا تقضى على هذا الـشاب وإلا سـوف أمـوت" ، ظـل خـورشـاه يفـكـر لوقت طـويل ثم رفـعنى وقـال: "ولكن يا زمـرد من الضرورى جـدا أن يخلى هذا الوادى من هذا الشخص العنيد" .

أنا: آه! كنت قـد أوصيتـه إذا مت أن يؤكد لأهل بـيتى على عـفتى وطهرى ، ولكن للأسف لم يوافق.

فـزع خورشـاه بمجرد أن سـمع هذا وقـال: "هل كنت قد أوصـيتـه بالذهاب للبيت" .

أنا: نعم، وحين أكدت له على هذه الوصية قال:

حسنا لا بأس فى هذا، هناك حـيلة غاية فى الإتقان وعليهـا سيخلوا منه ذلك الوادى ، ولن يصيبـه منها أى نوع من الأذى، ولكن يا زمرد كل هذا ينحصر فى الأمل فى حبك فقط.

ومن الواضح أن ما أقـوله ردا عليه غير مـلائم تماما فوقفت صـامتة وطلب خـورشـاه قلمًـا ودواة وكـتب مـسـودة خطاب ودفع به ناحـيـتى قائلاً: "اكتبيه بيدك" فوضعته أمامى وجلست وكتبته ، ولم أكن قد رجعت بعد حتى استدعى خورشاه فلاحا من بائعى اللبن وسلمه الخطاب وأمره أن يضعه على القبر على حين غفلة منك، وكان هذا خطابى الأول وقد بينت لك مضمونه من قـبل، ولكنى أقول لك بعد ذلك إننى واجهت كل أنواع الظلم وأشكال المكاره عندما كتبت لك هذا الخطاب.

وعندما رجـعت بعد إرسـال هذا الخطاب كنت فى حيـرة شديدة من أمري ، وكان قد تأكد لى أنك الآن سوف تذهب إلى بيتى بعد أن أصابك اليأس فى لقائى ، وكنت مـستغرقة فى هذا التفكيـر نهارا كيف يكون وقع خبر موتى على قلب أبى وأمى بعد سمـاعه منك وقد انقضت عدة أسابيع على هذه الحالة ، وذات يوم جاءت عندى حورية اسمـها مرجان و كانت تبـدى لى المواساه دائـما ، ولكن اتضح لى بـعد ذلك أنهـا كـانت ربيبة خورشـاه، وذات يوم عبرت لى عن ألمها مـن أجلى ، وكنت مضطربة من أجلك، وفى أحد الأيام وأثناء الحديث سألتنى: هل أنت من منطقة آمل يا زمرد؟

فقلت بفزع: نعم، لماذا؟

مرجان: هناك عـالم كبير يعيش الآن فى نيـسابور يغوى الناس على مخالفتنا ويخبرهم بأن هذه الجنة جنة مزيفة.

أنا: من؟ أليس هو نجم الدين نيـسابورى.

مرجان: نعم هو نفسه الذى يقترحون قتله.

أنا: (مندهشة) نـعم ولكن هذا ظلم عظيم ؛ فهـو عالم ربانى كبـير وأستاذ حسين وحسين من مريديه.

مرجان: (بدهشة): حسين من مريديه وتلاميذه!

أنا: ليس بالضبط ، ولكنه ابن أخيه.

وأخذت أتأسف من قلبى بعد ذلك، فهذا الظالم يقتل ذلك الشخص الربانى بلا ذنب وبسبب أفكاره، وقـد رأيت فى الليل عدة أحلام مـفزعة ورهيبة ونهضت فى اليوم التـالي وجلست ولـم تكن الشمس ساطعة بشكل جـيد فـإذا بمرجان قـد أتت وبدأت تقـول: "هيـا يا زمرد فـإن خورشـاه يستدعيك".

أنا: (فى حالة فزع) لماذا؟

مـرجان: هذا مـا سنراه، لكن هيـا الآن، كنت مـضطرة لأن أذهب معها ، وبعد أن ذهبت هناك رأيت فتـاة حسناء يأخذ من يدها كأس الخمر ويحتسيه وما أن رأى وجهى قال:

خورشاه: أنت لـم تتركى التفكيـر فى حسين بأى صورة؛ فلو حققتى رغبتى واقتنعتى بها فأعدك بأن أقابلك به.

بعد أن استمعت إلى هذه الكلمـات سرى فيّ قدر من السعادة، لكن شرطه كـان مثل الذى يمزج السم فى كأس الشراب تمامـا. فراودتنى فكرة أخرى وقلت: لو أنك رحـيم وجعلتنى ألتـقى به فسـوف أبقى لك جارية طول عمرى، فسر من ردي هذا وأعطانى مسودة الخطاب الثانى على الفور وقال: اكتبيها بخطك فأخذت المسودة من يده وقبل أن أقرأها نظرت ناحية خورشاه وسألته:

"هل سيغادر حسين هذا الوادى الآن"؟

خورشاه: لا ؛ إنه لم يكترث بخطابك الأول قيد أنملة، وهكذا جلس مجاورا للقبر وكنت تعتبرينه حبيبا صادقا ووفيا ، ولكنه لم يحفل بك وتعلق قلبه كذلك بهذا الوادى الخلاب حتى إنه لا يمتثل الآن لأمرك.

أنا: لا إنه وفىٌ إلى ذلك الحد الذى أعرفه، فكما أنه لم يطب نفسا لفراقى فهكذا لم يستسغ فراق قبرى الآن.

حسين: (بعد أن غلبت عليه العاطفة) لا شك يا زمرد فإننى لم أمتثل لأمرك من أجل هذه الفكرة.

زمرد: حسنا ، بعد أن سمع هذا الكلام على لسانى، نظر إلى محدقا بدهشة وقال بصوت منخفض إلى حد ما: "اكتبى هذه المسودة سريعاً وتهيئى للقاء حسين" ، وتعجبت من قراءة هذه المسودة، قرأتها وقلت فى نفسى إلى أى قدر هؤلاء الناس مخادعون ومحتالون، على كل حال كتبت الخطاب وسلمته له ومشيت، وعلمت فى اليوم التالي على لسان مرجان أن الخطاب أرسل إليك، وكان الهدف منه أن تعتقد فى الشيخ على وجودى وعن طريقه تقتل بيدك الإمام نجم الدين نيسابورى ، وأن تتنزه فى الجنة جائزة لهذا وتسنح لك الفرصة للالتقاء بى، فماذا أقول لك يا حسين عندما علمت بهذا الأمر وأى لعنة وأى لوم حل بى ، دب الخوف فى قلبى حيث إنك سوف تخضب يدك بدمائه من أجلى، وكنت أدعو الله ألا تعمل بهذا الخطاب مثل الخطاب الأول، ولكنى عندما علمت أنك رحلت ممتطيا الحمار الذى أرسلوه لك هنا تضاعف خوفى وبدأت الدعاء أن ينقذك الله من هذا الذنب ، ولكن بعد فترة من الوقت علمت

أنك الآن يجب أن تـأتى للجنة لمدة يـومين أو ثلاثة أيام، تأكـــد لي أنك وقعت فى شـباك هؤلاء الظالمين ، وبعـد أن غادرت ذلك الوادى ورحلت بدأ الحور هنا فى الذهاب هناك بغرض النزهة والتجول فى معظم الأوقات ، وإلى جانب هذا كنت أذهب معهم أحيانا بأمر من خورشاه ، وعندما أرى قبرى أبكى من قلبى كثـيرا نتيجة التفكير فـيك، وعندما جئت إلى الجنة، كنت قد أخـبرت قبلها كـيف ألتقى بك وما الذى أتحدث به مـعك وكيف أضاعف من اعـتقادك بهم وولائك لهـم، وتم التأكيـد على أنه لو حدث خلافا لهـذا ولو أفشيت السر وإن كان بسيطا فـسوف يقتلونك أولاً ثم أنا من بعدك، وأخـذوا يراقبـوننى أنا وأنت كل وقت حتى لا تسنح الفـرصة للحـديث معك بكلمـة واحدة، عـلاوة على هذا فـإننى عندما تبـدو لي حالتك هذه وكأنك مسحور بسحر مبين، وجاهل بكل خير وشر و لا أمل فيك ، وأنك لن تتـحمل وتخفي مـا سأخبرك بـه وبناء عليه لم أقل لك شيئـا، ومع ذلك سنحت الفرصة وأخبرتك بالمجيء على قـبري فى حالة اليأس ، وفي النهـاية وفقنى الله بهـذه الحيلة ، ولكننى يا حـسين تحملت ظلماً فادحا من أجـلك على يد خورشاه ، وكنت من أجل اسم هذه الجنة قد واجهت صـعوبات أكبر بعـد ذهابك ، وكان يدور فى خيـال خورشاه أننى سوف لا أوافقـه قط ، ولكننى أحيا الآن نتيـجة لرغبته الـقلبية ولوم الناس.

حسـين: (بعد أن عـانق زمرد) إنهـا لغنيمـة أن نلتقى بعـد كل هذه المصـائب ، ولكن الآن من الضـرورى بالـنسـبـة لى أن أنتـقم من أولئك الظالمين جراء ما يفـعلون ولن أجد نصيبًا من الراحـة قط ما لم أنتقم منهم وكـفارة ذنوبى هى أن أطهـر العالـم من دنس طور معني وعلى وجـودى

وخورشـاه ، وكمـا كنت فدائيـاً لأولئك الناس فإنـنى سأظل الآن فـدائيا مخلصا للدين ، وسأذهب إلى معقلهم ، وسأرسل هؤلاء الناس من خداع الجنة إلى جهنم.

زمرد: ليس من المهم الذهاب إلى مكان ما فعيد قائم القيامة فى هذه الأيام، وكل هؤلاء الناس يأتون هنا ويبـقون فى هذه القـلعة وتعـد العدة كاملة لعـقابهم ، واليـوم ستجـد الفرصـة حتى المساء لكى تداهـم القلعة والقصر وخورشاه مع بلغان خاتون وتقضى على ثلاثتهم فى وقت واحد.

حسين: كيف علمت بكل هذه الأمور هنا يا زمرد؟

زمـرد: من الحور وأهل الجنـة ، وهذا قليل من السـر الخفى حـيث تحضر بعض الحوريات هنا إلى قصر خـورشاه مثل مرجان، وتظـل حـورية أو حوريتان مـوجودتين فى صحبته كل وقت، وعندمـا يعود هؤلاء الحور يحكين للآخرين ما سمعا ورأيا، وهكذا فى فـترة وجيزة يعرف الجميع كل شى، وكنت أنا أيضا أسـمع بطريقة ما، نعم ياحـسين فقد أخبـرتك بعدد الجيش الذى يكون مع الأميرة؟

حسين: جيش؟ سوف يزداد قليلاً.

وفجـأة ارتفع صوت معركـة صاخبـة فاضطرب كلاهما وخـرجا من القصر، فرأيا جيشا عظيمـا من آلاف الجند فجريا ناحية ذلك القصر الذى كانت الأميرة بلغان خاتون تستريح فيه.

الباب التاسع

الانتقام

خرج حسين وزمرد من القصر فتـراءى لهما عالم عجيب ؛ حيث لم تعد الطمأنينة والراحة فى الجنة كما كانت ؛ وبدا كأن القيامة قد حلت فى الفـردوس الأعلى، فالغلمـان والحور الحـسناوات ذوات الوجوه الملائكـية والتى كانت تخدع كل من يشاهدهم بحـسنهم وجمالهم الذى يُحيلهم إلى مخلوقات نورانيـة أخذوا يخرجون من القصـور والمنازل ويهربون مذهولين يتخـفى كل واحد منهم ويسـتتر بالآخـر ، وحدثت ضجـة وجلبة فى كل مكان ، وارتفع صوت البكاء والعويـل والنحيب والنواح فى كل جانب ، وكان قد ذُكر أن البكاء حـرام ؛ وفى هذه اللحظة كان جيش تاتارى جرار قد دخل الجنة وانتشـر عساكره فى جميع الأرجـاء فأعملوا السلب والنهب والاغتـصاب فى القصـور والمنازل وأسروا الفتيـات الجميـلات والحوريات الفاتنات اللاتى خلقت أصوات صياحـهن وصراخهن وأشكالهن المشدوهة جوا رهيبـا ولحظات حرجة عجـيبة ، وجرى حسـين وزمرد بمجرد أن رأيا منظر الذهول والوحشة هذا، ووصلا إلى ذلك القصر حيث كانت تستريح الأميرة بلـغان خاتون، وصلت زمرد بالقـرب من استراحة الأمـيرة وما أن

طرقت الباب حتى انقض عليها مُهاجم تاتارى متوحش بعد أن رأى وجهها وأخـــذت أسيرة أيضـا مثل جميع الحور القـريبين منها، ولكن حسين لم يهـرب بعد أن رأى هذا ، ولم يكن مع حـسين أى سلاح فـاستل خنـجر الفدائية وجرى واحتدم القتـال بينه وبين تاتارى آخر كان قريباً منه ، وفجأة انفتح باب الحجـرة وخرجت الأميرة الجمـيلة بلغان خاتون بشعرها المبعثر المتدلى وأطراف ملابسها الطويلة مسدولة على الأرض فصاحت بلغة تاتارية قائلة: قـف، وما أن رأى التاتارى صـورة الأميـرة حتى جـرى وخر على قدميها وقال كنا نبحث عن سموك.

الأميرة: أنت من بين المصاحبين لى؟

التاتارى: لا.

الأميرة: (فى سعادة) هل حضر أخى؟

التاتارى: نعم، وظهـر فجأة سرب هائل من التاتار يـتوسطه هولاكو خان نفسه ، وكان السيف مسلولاً فى يده ، بينما عرف الديك معلق على عمامته ، وكانوا يظللونه بالأعلام التاتارية والرماح المغولية فقد كان معروفاً للجمـيع بهذا الشكـل لكونه من الأسرة الملكيـة ، وهكذا عرفـه كل قواد الجيش، وخـرجت بلغان خاتون من حـجرتها بعد أن رأت هوـلاكـوخان قادما وجرت لاستقباله وقد التقت الأخت بأخيها بحماس وعاطفة وصياح وتم ترتيب وصفّ الشباب المغير الشرس لمدة ساعـة لتحية أميرتهم الحسناء الفاتنة، وتعالت هتافات السعادة والسرور من كل جانب.

بلغان خاتون: (لهو لاكوخان) متى جئت يا أخى؟ وهل كنت قلقاً من أجلى؟

هولاكوخان: لقد كتبت لى ولم آت، وليس في شك أنه كان من الضرورى الإسراع فى تعقب سلطان الديلم فى ذلك الوقت ولكننى كنت مضطرا بمجرد أن رأيت خطابك أن أترك بعض الجيش لمطاردته وأصطحب معى باقى الجيش إلى هنا لنجدتك.

بلغان خاتون: كنت قد أخبرتك قبل مغادرتى بعدة أيام ، ولهذا السبب لم أحضر فى صحبتى جند كثير ، ولكن فى صباح اليوم زاد قلقى لسبب تأخر وصولك.

هولاكوخان: حاولت جاهدا أن أصل فى الصباح الباكر ، ولكنى لم أستطع بأى شكل الوصول، حسنا والآن لم أتأخر كثيرا.

بعد ذلك طلبت بلغان خاتون من زمرد وحسين أن يقدما علامات الطاعة لهولاكو وقالت: "هؤلاء هم الناس الذين ساعدونى فى الوصول إلى هنا" ؛ فقام هولاكوخان بعناقهما وقال: "أتقدم إليكما بالشكر الجزيل بالنيابة عن أختى". عندئذ ركع كلاهما وقبلا قدمه وقالا: "لقد تخلصنا من هذا السجن باهتمام سموكم وإلا ما كان هناك أى أمل فى النجاة طوال الحياة".

بلغان خاتون: وكم عدد الجيش الذى اصطحبته معك يا أخى؟

هولاكوخان: اصطحبت خمسين ألفا والتقينا فى الطريق مع أربعين ألف شاب ممن اصطحبتهم معك؛ فوصل مجموع عدد الأبطال التاتار تسعين ألفاً ،ولكني أحضرت منهم معى خمسه آلاف فقط. وكان من المستحيل اصطحاب جيش يفوق هذا العدد بسبب وعورة الطرق.

بلغان خاتون: إذن يقيم باقى الجيش هناك على شاطئ النهر.

هولاكوخان: لا؛ فقد أرسلت إلى قلعة آلموت أربعين ألف جندى من جيشى قبل عـدة منازل ، وسوف يصلون اليوم ويهجمون عـليها بمجرد أن يسمعـوا صوت طبولنا ونفيرنا من داخل القلعـة، وقد وصلت إلى شاطئ نهر ديرنجـان ، وعندما علمت بأن كثيـرا من الجند لن يستطيعـوا الوصول حتى هنا، عينت طوبى خان قائدا على ما تبقى من الجيش وأمرته بالذهاب إلى قلعة آلموت أيـضا والهجـوم عليها، ومـعه خمـسة وأربعـون ألفا من الجند، وقـد ظننت أن هؤلاء الجند لـن يتمـكنوا من الوصـول فى الوقت المحدد، ولكن بالصدفـة ولحسن الحظ التقيت هناك برجل ممن يقـيمون فى الجبال أخـبرنى أن آلموت قريبة جدا ويستطيـع الجيش بأكمله أن يصل هناك فى خمس ساعـات على الأكثر، وقد اصطحب طوبيـخان ذلك الرجل ، وتأكد أنه سيـصل بعد وقت قصير إلى بوابة القلعـة، أخبرينى أين الطريق للقلعة.

بلغان خاتون: يـا أخى توقف هنا قليلاً لتستـريح ثم سر فأنت الآن ترحل متعبا منهك القوى.

هولاكوخان: (مبتسمـا) إن راحتى فى الرحيل، والمواجهة فى ميدان القتال هى أفضل صورة لإظهار الشجاعة، وما لم يتم النصر فإن أى شىء فى ذلك الوقت لا يمكن أن يزيل تعبى، حـسنا لا شك أننى الاحظ تعبكم لأنكم وصلتم هنا قبلى واسترحتم تماما ، والآن ليس من الضرورى انتظار شىء.

حسين: (بعد أن تقدم خطوة للأمام بحماس وعاطفة): أيها الملك لا شك أنه لا يجب الانتظار هنا ؛ لقد خـدعنى هؤلاء الناس إلى هذا الحد، وقد اقترفت يبدى العديد من الذنوب، وسوف لا يقر لى قرار ما لم أقض

عليهم و الأشخاص الثلاثة بصفة خاصة، إن هاتف الانتقام يخرج من قلبى كل وقت فيجعلنى مضطربا .

هولاكوخان: (مبتسما): كيف خدعت؟ قص علىّ قليلاً.

قص حسين حكايته بكلمات مختصرة تنفيذا للأمر الملكى، ثم بدأ يقول وهو يبكى: للأسف لقد خدعت خدعة كبيرة باسم حب زمرد ، وسوف أظل أصب اللعنات عليهم ما دمت حيا.

هولاكوخان: (بدهشة) أحقا كان هؤلاء الناس قد نصبوا للدنيا فخا عجيبا من الرياء والخداع؟ والآن فإننى أريد أن أطهر الدنيا بأسرها من دنس الملاحدة بعد فتح هذه القلعة.

حسين: لو تم لك ذلك فإن الله تعالى سوف يرضى عنك وستظل الدنيا للأبد رهن إحسان أسلحتك المباركة.

هولاكوخان: امض الآن ؛ ففى التأخير ضرر وجيشنا الذى يعسكر حول القلعة قلق ومضطرب.

زمرد: هذه المهمة مسئوليتى؛ فلا أحد يعرف الطريق سوى جاريتك، ولكن مر المرافقين لى بالمضى فى صمت مطبق حتى ندخل القصر، لكى لا تغلق بوابة القصر فتواجه صعوبات جمة فى دخول القلعة.

وطبقا لنصيحة زمرد أمر هولاكوخان جميع مرافقيه بالبقاء فى صمت وسكون والتقدم تدريجيا ودخل الجنة خمسمائة جندى تاتارى من المصاحبين للأميرة من قراقورم ومن بعدهم خمسة آلاف جندى وغادروا الجنة لكى يحرسوا الغلمان والحور الأسرى ، وقد اتجه هولاكوخان إلى

القصر الملكى لألموت لهذا الغرض، وكـان حسين فى المقدمة وحصل على سيف مـن شاب تاتارى ، وأعلن أنه مـتأهب للانتـقام والغـضب ، وكان خلفه هولاكوخان نفسه ، وكـانت بلغان خاتون على الجانب الأيمن وزمرد على الناحية اليسرى وخلفـهم سرب من خمسه آلاف تاتارى، وبالرغم من أن الازدحام والحماس والضـجيج قد بلغ مبلغه، إلا أنهم تقـدموا تدريجيا بصرامـة وصمت بعد أن طووا الحدائق والـرياض ناحية نهر ديرنجـان حتى وصلت هذه الجموع فى صمت إلى الجسـر الذهبى وتقدمت زمرد وفتحت قفل الجسر الذى كانت قد وضعـته فى صباح اليوم لغلق الطريق ثم فتحت بوابة الجـسر فنزل جـميع الجند من النهـر ودخلوا هناك فى روضة جـذابة فسيحة ومروا من طريـق رائع وبديع حتى وصلوا إلى دوحة أشجار ظليلة وكانت البـوابة الجمـيلة لقصر ركن الـدين خورشاه مـخفيـة فى ثنايا تلك الأشجار ، وبمجرد أن رأى الجند شكل البوابة أسرعـوا واقتحموها وقطعوا دهليزا طويلاً قبل أن يعلم بهم أحد حـتى وصلوا إلى حديقة رائعة للنزهة لا تقل فى جاذبيتها وفتنتـها ونضارتها عن جنة آلموت. وعندما رأى بعض العـسكر الذين كانـوا معـينين للحـراسة تلك الحـالة من التناقض حـملوا أسلحـتهم وفـروا ، وعندما أدركـوا أنهم أمـام جيش التـاتار ولوا هاربين مذهولين فلقـى قليل منهم حتفـهم بينما نجح البـقية فى الهـروب ، وساد الاضطراب والشـغب القلعة وكل القـصور التى كـانت تشهـد احتـفالا ، وكانوا يحـتفلون بمناسبـة دينية ؛ حيث اجتـمع جمع غفـير من الناس من الداخل والخارج ولو أدركـوا الأمر لكان من الممكن أن تنشب معـركة بين الطرفين لكن الخوف من التاتار كان مستقرا فى تلك الأيام فى قلوب العالم بأسره، فبمجرد أن سمعوا بدخـولهم فى القلعة فزع الجميع حتى خورشاه نفسه الـذى كان واقفا يلقى الخطبـة، نزل من على المنبر وهرب فى ذهول

ليختبئ فى إحدى الأركان ، ولكن لم ينجح لأن نساء القصر الجميلات ذوات القدود الممشوقه جئن هاربات حاسرات الرؤوس حافيات الأقدام فاقتفينا أثره متشحات بردائه طالبات للحماية ، ولم يكن يعلم آنذاك أن هناك جيشا تاتاريا جرارا وهائلاً يحاصر القلعة، وبعد أن رأى الحرّاس وأهل القلعة من الدعاة والفدائيين الملك وأنصاره فى حالة ذهول فتحوا بوابة القلعة وهم يصيحون فى خوف فخرج منهم من خرج ودقت الطبول المغولية ونفخ فى الصور داخل القلعة، وما أن استمع الجيش التاتارى الموجود بالخارج لصوت موسيقاهم الوطنية حتى قرعوا طبولهم وهجموا على الفور ؛ أما الهاربون فرأوا البحر الزاخر لجيش التاتار يتجه نحوهم كالطوفان فانقلبوا على أعقابهم فى ذهول فاقتفى آثارهم بسرعة فائقة جيش طوبى خان ، وفى الخارج أعمل فيهم الأبطال المغول القتل واقتحموا القلعة.

وهكذا حدث إعصار شديد داخل القلعة ، وبدا منظر القتل العام فى كل جانب ، واستمر قتل الشيوخ والأطفال والنساء والرجال والحرفيين والحراس بلا تفرقة ، وكانت معركة عجيبة استخدمت فيها جميع أنواع الأسلحة: الأسهم والرماح، السيوف والسكاكين، الفؤوس والمعاول ، بينما اختلطت فيها الأصوات المذهلة مع الصرخات الموحشة للمحاربين التاتار وبكاء النساء والأطفال وعويلهم وآهاتهم وأصوات الضرب فى آن واحد.

قام هولاكوخان بمصاحبة بلغان خاتون بمداهمة كل حجرة وكل قاعة فى قصر خورشاه ، وأخرجوا المذعورين من النساء والرجال والشيوخ والأطفال ، وساقوهم إلى ميدان فسيح كانوا يحتفلون فيه بمناسبة العيد

قبل عدة دقائق ؛ حيث كانوا يتصايحون بحماس السرور والمتعة ؛ ومن ناحية أخرى كان رفاق طوبيخان يسوقون الهاربين مذهولين تماما ويحضرونهم إلى ذلك الميدان فى حال من الاضطراب وهم يتصادمون كالأمواج، فلا يتذكر أحد رفيقه فقد أصابهم الذهول ومن بقى من الأعداء كان كالمجنون أو الغريق يحاول أن يمسك بقشة.

كان هذا المنظر المفجع قد أثر تأثيرا قويا على قلب زمرد ؛ فكانت تبكى لرؤية هؤلاء الناس، وكانت بعض النساء المظلومات فى القلعة يولولن ويصرخن ، وبعد أن رأت بلغان خاتون زمرد مضطربة اقتربت منها تقول: "لم أكن أعلم يا زمرد أنك ضعيفة القلب إلى هذا الحد وإلا ما أحضرتك هنا" .

زمرد: أيتها الأميرة أنا فعلت كل هذا، وكل قطرة دماء أريقت سيكتب ذنبها باسمى ، ومن المستحيل أن أستطيع النجاة من انتقامها.

بلغان خاتون: هذا فقط لضعف قلبك ، وإلا ما كان قتل هؤلاء الناس ذنبا، فكرى قليلاً ، إننا الآن نثأر للعديد من الشخصيات المشهورة.

زمرد: (مختنقه بالبكاء) ليكن ذلك، لكنى أيتها الأميرة لم أر مثل هذا الظلم والجور.

بلغان خاتون: عندما يتأثر القلب بهذا الظلم والحور فتذكرى تلك المظالم التى ارتكبت فى الدنيا على يد هذا الشباب الظالم.

وفى فترة وجيزة قتل أكثر من نصف سكان القلعة، وكانت الجثث لا تزال فى آخر رمق لها فى كل جانب وهم مضطربون فى كل ناحية ويتوافدون على مكان يحتشد فيه الكثير ويلتقى أحدهم بالآخر فيتقافزون

ويتعانقون معا لأن فكر القتلة لا يتجه إلى هذه الناحية، وكانوا يضطربون لسقوط جثث الناس الملقاه بلا حول ناحية أكداس الجثث واعتلى إذ ذاك هولاكوخان المنبر الذى غادره خورشاه ونزل من عليه دون أن يكمل الخطبة، كان سيف هولاكوخان فى يده مسلولاً وملوثا بالدماء، وكانت أخته الأميرة بلغان أسفل المنبر تقف بالقرب منه. أما حسين فبالرغم من أنه لم يكن رجلاً عسكريا لكنه وجد الفرصة سانحة تماما للانتقام من هؤلاء الملاحدة؛ فقد كانت قلبه متعطشا لقتلهم، وكانت حشود التاتار تمضى جادة فى البحث عن أولئك الناس ، وفجأة سعى إليه شخص وتشبث بذيل ثوبه وخرج هذا الصوت من فمه: "انقذنى يا حسين، أنا أعلم أنك فرع من شجر المعرفة" أدرك حسين أنه كاظم جنوبى فخطر على قلبه أن يطير رأسه بضربة واحدة ، ولكنه فكر أن يستدل منه على "على وجودى" و"طور معنى" ، وبمجرد أن خطر هنا بباله اتجه ناحية كاظم على جنوبى وبقليل من الألفة سأله: "أين طورمعنى؟" .

ما إن سمع كاظم جنوبى هذه الكلمات حتى رفع رأسه ونظر فى الاتجاهات الأربعة وأشار إلى عجوز رث الهيئة كان يجلس على الأرض حاسر الرأس بين عدد من الناس ثم خر على الأرض وبدأ يقول: احمنى يا فرع شجر المعرفة، نظر حسين إلى هذا الذليل المتضرع بنظرات الغضب وقال لن أحميك بسبب ما تظهر من ذلة مخادعة وأطاح برأسه.

واتجه حسين نحو ذلك العجوز بعد أن ترك كاظم جنوبى يتلوى واستطاع أن يعرف بعد فترة أنه نفسه طورمعنى فمد حسين يده وسحبه للخارج وقال: اليوم مزقت بنفسى تلك السبعين ألف حجاب وأرى نور سيناء بلا حجاب، وما إن سمع طورمعنى هذه الجملة حتى نظر ناحية

حسين بتعجب ودهشة وقال: أيها الشاب من تكون حتى تعلم رمز الحقيقة؟

حسين : نعم أعلم جيدا رمز الحقيقة ، لكنك ربما لا تعرفه أنت.

طورمعنى : لا، مطلقا.

استشاط حسين غضبا بمجرد أن سمع هذا الرد ويصق على وجهه وقال: "أكان ذلك من قبل كشفا فقلت مرحبا بك أيها الشاب الآملى، دون أن ترى صورتى وتسمع صوتى؛ واليوم بعد أن رأيتنى لا تستطيع معرفتى ، لقد انكشفت كل مؤامراتك واتضح خبثك وشرك" ، وبهذا الرد بدأ طورمعنى يقبل قدم حسين ، وقال بصوت فيه لين وذهول: "الرحمة أيها الشاب الآملى، الرحمة".

حسين : لا . . مطلقا، إنك فتنة يجب تخليص الدنيا منها بسرعة وبقدر المستطاع.

بعد أن قال حسين هذا جثم على صدر طورمعنى ووضع السيف على الأرض وأخرج خنجرا من خصره وقال: "هذا هو خنجر الفدائية الذى رُبط فى خصرى وبه قتلت الإمام نصر بن أحمد الصالح التقى، وبه أُمزق صدرك غير الطاهر".

كان طور معنى يتمتم بكلمات غير مفهومة عندما غُرس خنجر حسين فى صدره فأسلم الروح بآهة واحدة، وأخذ حسين سيفه وهب ليقف ولم يكمل اعتداله تماما حتى رأى تاتاريًا على مسافة قريبة إلى حد ما من هولاكو خان يجر رجلاً عجوزا طاعنا بعد أن ربطه فى عمامته فرآه حسين من بعيد وعرف أنه هو "على وجودى" فهرول إليه بدون اختيار وأمسكه من وسط العمامة وصاح "هذا من نصيبى".

التاتارى : لماذا؟ أنا أسرته ويصبح من نصيبك؟

حسين : نعم، إنه نـصيبى منذ فـترة طويلة، ومع هذه الجـملة أشار هولاكـو خان إلى هذا التـاتارى أن يُسلم هذا الأسـيـر إلى حسين، وهكذا قـام حسين بجذب على وجودى من عمامته وأدرك "أنه يعرفه".

كان على وجـودى فى هذه الحالة من اليأس والذهـــــول بحيث لـم يكن يدرك مـا سيـحل به وعلى يد من أُسر، لكن بـعد أن سمـع صوت حـسين، رفع رأسه وبمجـرد أن تعرف علـيه صـاح "كنت أبحث عنك يا حسين، وعندما علمت بخبر إخراجك من قلعة آلموت، حزنت حزنا كبيرا ، وللأسف إذا أتيت عندى مـا كنت فشـلت" ؛ فى الحقـيقـة لـم يكن على وجودى يدرك أن حسين الآن يعارض أفكاره وجال فى خياله أنه حتى الآن من مريديه ، ولهذا السبب أنقذه من يد التاتارى بشجاعة وبطولة وأحضره إلى هنا.

حسين : (بعد أن ترك طرف العمامة وأمر العقيدة) لكنك تعرف أمور الغيب ولـعلك أدركت بدون شك تنزهى اللاهوتى وفى أى ممرات جبـلية أتجول وأتخبط.

بعـد أن سـمع على وجـودى هذا من حـسين نظر إليـه بعين الشك وقـال: "تكون تلك النزهة اللاهوتيـة فى ذلك الوقت عندمـا يسـتخـدم الإنسان الاهتـمام القلبى، وفى الحـقيقـة أننى لم أهتم مطلقا بـالبحث فى حالتك".

حسين : لـكن لا أمل فى هذا؛ فسـوف أترك اعتقـادى وإيمانى بك كليةً.

على وجودى: وكيف وقعت الفتنة يا حسين؟ من المؤكد أنك تعلم، وإلا ما تركنى التاتار بناء على طلبك.

حسين : ما أهمية سؤالك وأنت تعلم كل أمر بأدنى اهتمام قلبى.

على وجودى: بقدر ما تعرف ، إلا أنك جاهل برموز عالم الأرواح، وأن الناس الذين ينالون الكمال فى تلك الرموز لا يعلمونها أحيانا، ألم تسمع:

اعتلى الفلك الأعلى حينا ولا أرى ظهر قدمى حينا آخر

حسين : لقد رفض ركن الدين خورشاه إرسالى للجنة وأخرجنى من القلعة ويئست بعدها وكنت وحيدا مخذولاً، وللأسف فإنك فى ذلك الوقت لم تعلم بى، لكن الأمر تغير حيث قابلنى القدر بشخص ، والآن وصلت ببركته وبإرشاده إلى الجنة ، وكانت معانقة زمرد من نصيبى، وللأسف خرجت من زمرة مريديك وانضممت إلى مريديه والمعتقدين به.

على وجودى: أى شخص هو؟

حسين : هولاكو خان قائد التاتار وشروطه صارمة جدا.

وما أن سمع على وجودى هذا حتى ارتعدت فرائصه ونظر إلى وجه حسين وسأل ما هى هذه الشروط؟

حسين : هى أن أستأصل رؤوس من أجد من الملاحدة الخبثاء أصحاب الأعمال السوداء.

على وجودى: (مذعورا) ألا تتمهل فى تنفيذ مثل هذه الأحكام الظالمة.

حسين : لا، قط، لقد تعلمت درسًا منك: يجب بقاء المريد فى يد المرشد مثل الآلة بلا روح، فلكل ظاهر باطن ، وباطنه عند مرشدى حسن جدا ومقبول فى حضرة الله.

خجل على وجودى ولم يجب، ورفع رأسه وقال: لكن يجب استعمال الرحمة فى كل شيء؛ إن الله لا يقبل الظلم.

استشاط حسين غضبا لهذا الجواب ، لكنه تماسك وتملك نفسه وقال: لا شك أن الله لا يقبل الظلم ، ولهذا السبب فإن روح الإمام نجم الدين النيسابورى تصرخ حتى اليوم ، وتنادى بأن دمى فى رقبة على وجودى، وبعد أن سمع على وجودى هذا ارتعدت فرائصه وبعد فترة وجيزة وعندما هدأ قلبه قليلاً، قال: ولكن بقيت هذه العلاقات بينى وبينك ، ولا أتوقع أنك إنسان قاسى.

حسين: إن علاقتى بك ليست من علاقتى بالإمام نجم الدين نيسابورى ؛ فقد كان عمى وأستاذى ومرشدى.

الآن أصبح الخوف خارجا عن اختيار "على وجودى" فلم يتمكن من السيطرة على مشاعره بسبب الخوف فانفجر باكيا وخر على قدمى حسين وصاح: "الرحمة! الرحمة!".

حسين : لا . . مطلقا ؛ فآلاف الأرواح الطاهرة المقدسة تستغيث ، لأنك من المؤكد أمامها الآن وسوف تهددك وتوبخك من الجهات الأربع، ولاشك أن حالة "على وجودى" فى ذلك الوقت أنه كان ينظر مضطربا للجهات الأربع مرارا ، وكانت تظهر له فى كل جهة صورة مظلوم يهدده بالخناجر والسكاكين، وفى نفس هذه الحالة وبينما تبدو له السكاكين فى

الجهات الأربع إذ بحسين يستل خنجره من خصره ويجعله أمام عينيه قائلاً: هذا نفس الخنجر الذى أعطيتنى إياه ويأمر خاص منك استقر بيدى هذه فى صدر الإمام نصر بن أحمد وصدر الإمام نجم الدين النيسابورى ، انظر هذا الخنجر باقٍ حتى اليوم فقط من أجل أن أُغمده بيدي فى صدرك؛ فلتفهم جيدا ما أقول ولتستعد لأن وقت الانتقام قد حان، وحين سمع على وجودى هذه الكلمات ارتعد مرة أخرى وبدأ يقول فى خوف وهلع: "لا تقتلنى ، ومن الآن فصاعدا لن أدافع عن مذهب الباطنية مطلقا" .

حسين : لكن عهدك هذا لا ينقصه إلا الدم جزاء لأعمالك السوداء، وبعد أن قال حسين هذا طرح "على وجودى" على الأرض وجثم على صدره ثم وضع خنجره أمام عينيه وقال: انظر هذا وتعرَّف عليه جيدا ؛ إنه نفس خنجرك.

كان موت على وجودى فى الحقيقة موتا بشعا، حيث كانت جميع الذنوب فى ذلك الوقت أشباحا تتراءى له بأشكال وصور مرعبة، لقد رأى أرواح آلاف المظلومين ، وكان يرتعد كلما وقعت عيناه على الخنجر، وبعد أن بلغ منه الاضطراب والهلع مبلغه أغمض عينيه وقال لحسين "بالله عليك اتركنى وارحم ضعفى" .

حسين : لا، الذى يخشى الله فى قلبه ولا يخافه فالخوف عليه ذنب.

على وجودى: يا قليل الحظ اقتلنى بسرعة ؛ فأنا مُحاصر والمصائب تتعقبنى.

حسين : من أجل هذا فقط فإننى أتأمل وأجد متعة طيبة فى رؤية لحظات موتك الحرجة والخطيرة بعدها سأقتلك، والآن اضطرب "على وجودى" كثيرا وكان يئن تحت وطأة حسين الذى كان يعرض الخنجر الذى أعطاه له أمام عينيه فيشيح برأسه هنا وهناك رعبا من صورته البشعة ، ويقول بالله عليك أبعد هذا الشىء من أمامى، وفى النهاية وبعد فترة ليست بالقصيرة وعندما رأى حسين أنه تأخر كثيرا وقارب جميع سكان القلعة على القتل قام بقتل على وجودى، وبعد الانتقام من أكبر المخادعين الضالين. اقترب مرة أخرى من هولاكو خان ولم يجد التاتار فى ذلك الوقت أحدا يقتلونه ، وكانت أعينهم تقطر بالدماء من جراء القتل العام الكبير ؛ فقد كانوا يدورون ويتجولون هنا وهناك مثل الضوارى المتوحشة أو الكلاب الضالة فيقتلون كل من وجدوه أمامهم ليخرجوا غضبهم.

ولم ينج من القتل سوى عدد محدود من الصغار والنساء الجميلات وقعوا فى الأسر ، ولم يبق أحد فى قلعة آلموت.

كان التاتار إذ ذاك يبحثون عن ركن الدين خورشاه حاكم آلموت وظلوا يبحثون عنه لفترة من الوقت فلم يعثروا عليه فى أى مكان، وفى النهاية داهم تاتارى الجب وأمسك به وأحضر بحالته إمام هولاكو خان، وكان واقفا مطأطئ الرأس أمام القائد ، وأراد حسين أن يختطفه ويقتله أيضا بخنجره ، لكن هولاكو خان صاح ومنعه ثم تقدم المغول وأمسكوا بيده.

هولاكو خان: هذا ملك هنا وجاء طالبا النجاة فى حالة ضعف ولهذا يجب منحه الحياة.

حسين : أيها الملك لو أنقذ هذا فسوف تظل الفتنة قائمة فى العالم، لقد كان سبب كل هذه الحيل والمؤامرات وجميع المفاسد.

هولاكو خان: لم يبق الآن متآمرون فماذا سيفعل هذا، وكل الخداع تحول إلى تراب ودماء ولا يمكن لهذا الشاب غير المحنك أن ينال الدنيا بالضرر؟

حسين: لا يمكن ألا يكون له معتقدون، إن أنصاره ينتشرون فى كل مكان من السند حتى مصر والشام.

هولاكو خان: سأذهب إلى تلك الأماكن أيضا وأستأصل شأفة أنصاره من الدنيا ، ولهذا يكفيه هذا العقاب وهو أن يُجلى عن وطنه بعدها نظر ناحية خورشاه وقال: "لاشك أن فتنتك كانت عظيمة، وقد أبقيت عليك بعد أن أشفقت على صمتك العاجز وقلة حيلتك، ومع هذا أمرت أن تقضى ما تبقى لك من أيام حياتك فى تركستان حيث لن تستطيع أن تجد أى مريد أو معتقد، ولن تعطى أى من تلك النساء ؛ لأنه من الممكن عن طريقهن أن تبدأ مرة أخرى خداع الدنيا بفسادك، يمكنك أن تتزوج من أى فتاة حين تصل إلى تركستان.

وتنفيذا لهذا الحكم اصطحبته كتيبة من المغول وأوصلته إلى قرية مجهولة فى تركستان بعد أن عبروا بحر الخزر بآخر ملوك آلموت ، وعندما أصبحت القلعة خالية من الناس انشغل التاتار بنهب الأموال وسرقة القصور وإشعال النيران وأشعلت النيران فى كل مكان بالجنة والقصور، وهدموا المنازل والقصور حتى سُويت بالأرض وصارت القصور التى كانت مبنية فيما أطلقوا عليه الجنة مجرد أكداس من الطين والطوب ، وقد فعل التاتار هذا بسرعة فائقة بحيث لم يبق فيها قاطن أوباك .

وبعد أن اطفأ حسين نار قلبه وتأثر من أعدائه اقترب من زمرد التى كانت فى حالة ذهول ومضطربة جدا بهذا القدر من الاضطراب فسألها حين رآها : "لماذا أنت مضطربة يا زمرد؟" .

زمرد : (بصوت متهدج) بلغ الذبح والسفك هذا المبلغ وأنت تسأل لماذا أنا مضطربة؟

حسين : هل نحزن لتدمير هؤلاء الظالمين أم نسعد؟

زمرد : ليسعد من خلق الله قلبه من حجر، فربما لم يخطر على بالى قط رؤية مثل هذا المنظر الوحشى فلم أتعود رؤية مثل هذه الأمور.

حسين : حسنا. . الآن أخبرينى ماذا تريدين؟

كانت الأميرة بلغان خاتون واقفة أمامها، فأتت عندها بمجرد أن سمعت هذه الجملة وقالت ماذا تريدان؟ ارحلا معى الآن وسوف تكون زمرد بالنسبة لي أكثر من أختى أما أنت فاشغل نفسك بأى أمر.

زمرد : لا أيتها الأميرة فقد اقترف كلانا عظائم الذنوب ، وكنا قد خرجنا من البيت عازمين على الحج فابتلينا بهذه المصائب ، والآن وجب علينا أن نحج أولاً ثم نفعل أى شىء بعد ذلك ، ولو فى الحياة بقية فإننا بعد أداء هذا الفرض سنحضر إلى قراقرم فى خدمتك. فما لم أكن هناك فى بيت الله خاصة لن أتمكن من التوجه لله ليغفر لى ، ولن يزول هذا الندم حتى ذلك الوقت ، وهو ندم كامن فى قلبى على الدوام ولا أذكره إلا وأزعجنى.

حسين: لاشك أن كـلام زمرد صحيح، فـقلبى يلعنى وربما أنجو من هذه الحالة حين أبلغ بيت الله وأدعو فى هذا المقام المقدس.

بلغان خاتون: لماذا أقول هذا؟ لا يريد قلـبى أن يفارقكما ، ولكنكما تصران ، وتعـتبـران الذهاب هناك فرضـا عليكما، ويبدو أنـه لافائدة من منعكما، ولكن هناك أمر يرضينى.

زمرد : تفضيلى، إن تنفيذ كل أوامرك فرض علينا.

بلغان خاتون: لقد خرجتمـا معا بهدف الزواج ، وأريد قبل الافتراق أن تتـزوجا حتـى أعلم قبل ذهابكمـا إلى وطنكما أن اتفـاقكمـا قد تم ، وسوف يسعد قلبى بعد أن يتذكر أن أمنيتكما قد تحققت على يدى.

لم يكن مثل هذا الطلب بالـطلب الذى يرفضه أحد، فـأبدى حسين موافقتـه بكلمات واضحة ، بينما ابتسمت زمـرد وقالت بعد أن طأطـأت رأسهـا بصوت فـيه حـياء: "أنا الآن جاريتك ومـا تأمرين به لا أسـتطيع رفضه".

وفى صباح الـيوم التالى أعد هولاكـو خان احتفالاً عظيـما من أجل تقسيم مال الغنيـمة وابتهاجا بالنصر ، وأقيمت حفلـة لكبار ضباط الجيش وقـد أبدوا سعـادتهم بالنصر السـاحق بحـماس عظيم، وفى ذكـرى هذا النجاح وهذا الـظفر قام الشـيخ نصيـر الدين الطوسى بعقـد زواج حسين وزمرد بطلب من بلغان خـاتون ويأمر هولاكو خان ، وكان علاّمـة عصره ومحقق زمانه الذى يقدره التاتار موجوداً فى تلك المعركة.

وبعد هذا الإجراء ودع الجميع بعضـهم فسلكت بلغان خاتون طريقها إلى قراقـرم مع رفاقـها ، ورحل هولاكو خـان تجاه آذربيجـان مع جيـشه

الظافر ، بينما اتجه حسين وزمرد إلى أرض الحـجاز ، وكانا قد خرجا من بيتهـما لهذا الأمر وتركا أطلال آلموت وبـها جميع الجثث تحـوم حولها من الطيور الجارحة وتسير فوقها الحمير.

وصل حسين وزمـرد إلى مكة المعظمة وأمسكا بأسـتار الكعبـة وطلبا المغفرة بقلب ضارع خاشع: "اللهم اغفر لنا جميع ذنوبنا، فعلى الرغم من أننـــا لم نفـعــل ما أمرتنـــا بـــه فـاقبضنا عـبدين لك بلا ذنوب مقـبولين عندك، لقـد ابتلينا بخداع كـبيـر وكان الشيطـان متحكمـا فينا بحـيث لم تنكشف لنا مساوئ الذنوب، لقد اقترفنا الذنوب ظنًّا منا أنها حسنات، لقد تعثرت أقدامنا لكننا ابتلينا بمكر كبـير، وعالم الغيب يعرف كلام القلوب، فانظر إلى ضعفنا وقلة حيلتنا واصـفح عن آثامنا الكثيرة ؛ وهكذا عادا بعد أن أزالا من قلبيـهما صدأ الذنوب، وبقيـا عدة أيام فى مدينتهـما آمل ثم ذهبا عـند الأميرة بلـغان خاتون فـى قراقرم ، حـيث عاشـا معـها بقـية حياتهما.

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لوسى سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

العنوان	المؤلف	المترجم
٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ	جين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتّاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرا متي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى   مجموعة من النقاد   ت : محمود على مكى
١٠٩ - حروب المياه   جون بولوك وعادل درويش   ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء فى العالم النامى   حسنة بيجوم   ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة   فرانسيس هيندسون   ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ   أرلين علوى ماكليود   ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد   سادى بلانت   ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع   وول شوينكا   ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده   فرجينيا وولف   ت : سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)   سينثيا نلسون   ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام   ليلى أحمد   ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية فى مصر   بث بارون   ت : لميس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق   أميرة الأزهرى سنبل   ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط   ليلى أبو لغد   ت : نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية   فاطمة موسى   ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان   جوزيف فوجت   ت : منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية   نيقل الكسندر وفنادوليفنا   ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب   جون جراى   ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - التحليل الموسيقى   سيدريك ثورب ديفى   ت : سمحه الخولى
١٢٦ - فعل القراءة   فولفانج إيسر   ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب   صفاء فتحى   ت : بشير السباعى
١٢٨ - الأدب المقارن   سوزان باسنيت   ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة   ماريا دولورس أسيس جاروته   ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية   أندريه جوندر فرانك   ت : شوقى جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)   مجموعة من المؤلفين   ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولمة   مايك فيذرستون   ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا   طارق على   ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة   بارى ج. كيمب   ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)   ت. س. إليوت   ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا   كينيث كونو   ت : سحر توفيق
١٣٧ - مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية   جوزيف مارى مواريه   ت : كاميليا صبحى
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف   إيفلينا تارونى   ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - پارسيڤال   ريشارد ڤاجنر   ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار   هربرت ميسن   ت : أمل الجبورى
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية   مجموعة من المؤلفين   ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل   أ. م. فورستر   ت : حسن بيومى
١٤٣ - قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى   ديريك لايدار   ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة   كارلو جولدونى   ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث — كارلوس فوينتس — ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء — ميجيل دى ليبس — ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة — تانكريد دورست — ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية) — إنريكى أندرسون إمبرت — ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس — عاطف فضول — ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية — روبرت ج. ليتمان — ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١) — فرنان برودل — ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى — نخبة من الكُتاب — ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة — فيولين فانويك — ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت — فيل سليتر — ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر — نخبة من الشعراء — ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى — جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو — ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين — النظامى الكنجوى — ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢) — فرنان برودل — ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية — ديفيد هوكس — ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة — بول إيرليش — ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى — اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا — ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة — يوحنا الأسيوى — ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١ — جوردون مارشال — ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور) — جان لاكوتير — ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب — أ . ن أفانا سيفا — ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل — يشعياهو ليفمان — ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور — رابندرانات طاغور — ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة — مجموعة من المؤلفين — ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية — مجموعة من المبدعين — ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق — ميغيل دليبيس — ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد — فرانك بيجو — ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس — مختارات — ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال — والتر ت . ستيس — ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء — ايليس كاشمور — ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية — لورينزو فيلشس — ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية — توم تيتنبرج — ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف — هنرى ترويا — ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث — نخبة من الشعراء — ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب — أيسوب — ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد — إسماعيل فصيح — ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى — فنسنت . ب . ليتش — ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة   و . ب . ييتس   ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – چان كوكتو على شاشة السينما   رينيه چيلسون   ت : فتحى العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام   هانز إيندورفر   ت : دسوقى سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم   توماس تومسن   ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل   ميخائيل أنوود   ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة   بزرگ علوى   ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب   ألفين كرنان   ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة   بول دى مان   ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس   كونفوشيوس   ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال   الحاج أبو بكر إمام   ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك   زين العابدين المراغى   ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم   بيتر أبراهامز   ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو–أمريكى   مجموعة من النقاد   ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤   إسماعيل فصيح   ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة   فالنتين راسبوتين   ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق   شمس العلماء شبلى النعمانى   ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى   إدوين إمرى وآخرون   ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية   يعقوب لانداوى   ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية   جيرمى سيبروك   ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة   جوزايا رويس   ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤   رينيه ويليك   ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية   ألطاف حسين حالى   ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم   زالمان شازار   ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات   لويجى لوقا كافاللى – سفورزا   ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علمًا جديدًا   جيمس جلايك   ت : على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى   رامون خوتاسندير   ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى   دان أوريان   ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح   مجموعة من المؤلفين   ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى   سنائى الغزنوى   ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فردينان دوسوسير   جوناثان كلر   ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان   مرزبان بن رستم بن شروين   ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر   ريمون فلاور   ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع   أنتونى جيدنز   ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢   زين العابدين المراغى   ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم   مجموعة من المؤلفين   ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان   صمويل بيكيت   ت : نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا   خوليو كورتازار   ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريا نيف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	آرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر ترمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الاتكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رابوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جرووز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جرووز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

العنوان	المؤلف	المترجم
٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : فاروجان كازانجيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	جون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم جيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم جيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	رومولو جالجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الجينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى

(تحت الطبع)

العنوان	المؤلف	المترجم
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنونًا	يوربيديس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ – رحلة إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ – علم الترجمة واللغة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم

٢٩١ – المسرح الإسباني في القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ – المسرح الإسباني في القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٣ – مقدمة للأدب العربي	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن الشعر بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوازي	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. مارس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس في الأدبين الإنجليزي والفرنسي ج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء جاهين
٣٠١ – فلسفة الولاء	جوزيا باريس	ت : أحمد الأنصارى
٣٠٢ – قصص قصيرة من الهند	داكر سهيل نجارى	ت : جلال الحفناوى
٣٠٣ – المعرفة والمصلحة	جيرجين هبرماس	ت : حسن خضر
٣٠٤ – تاريخ الأدب في إيران	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٠٥ – اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بير وجلو	ت : فخرى لبيب
٣٠٦ – يوسف وزليخا	نور الدين عبد الرحمن	ت : عبد العزيز بقوش
٣٠٧ – راينر ماريا رولكه	راينر ماريا رولكه	ت : حسن حلمى
٣٠٨ – سلامان وإبسال	نور الدين عبد الرحمن	ت : عبد العزيز بقوش
٣٠٩ – العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٣١٠ – الموت في الشمس	بيتر بلانجيه	ت : سمير عبد ربه
٣١١ – الركب خلف الزمن	بونه ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣١٢ – سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٣١٣ – الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٣١٤ – المتصوفة الأولون	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣١٥ – دليل القارئ والثقافة الجادة	آرثر والدرون وآخرون	ت : أحمد عمر شاهين
٣١٦ – بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاته
٣١٧ – مبادئ المنطق	جوزيه رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣١٨ – شعرية كفافس	قسطنطين كفافس	ت : نعيم عطية
٣١٩ – الفن الإسلامي في الأندلس (الزخرفة الهندسية)	باسيليو بابون مالدونادو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٢٠ – الفن الإسلامي في الأندلس (الزخرفة النباتية)	باسيليو بابون مالدونادو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٢١ – التيارات السياسية في إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٨٦١٨ / ٢٠٠١

كتب شرر روايته الفردوس الأعلى سنة ١٨٩٩م؛ فقدم لكُتّاب الرواية فى شبه القارة الهندية نموذجًا طيبًا للرواية، إذ تعد فردوس برين أو الفردوس الأعلى من ناحية الشكل الروائى من أحسن رواياته، رغم أنها من ناحية فن كتابة الرواية التاريخية لم تحقق النجاح المطلوب. إنها تعد حجر الأساس للشكل الروائى فى الأدب الأردى، فعناصر الرواية هنا تتجمع لتعطى تأثيرًا كاملاً فى القراء؛ إذ نلاحظ أن الحبكة الروائية، ورسم الشخصيات، وتصوير البيئة، والتعبير عن العواطف وفلسفة الحياة، كل هذه العناصر تتجمع لتعطى التأثير الذى يمكن أن تتصف به الرواية الدرامية.

وبترجمة هذه الرواية نقدم لقراء العربية وللمهتمين بالآداب الشرقية نموذجًا فريداً من نماذج الأدب الروائى الشرقى بقلم أديب متميز [illegible] أدباء الهند الكبار، وسوف تتيح هذه الترجمة للمهتمين بالدرا[illegible] الشرقية والدراسات الأدبية المقارنة فرصة للتعرف على نماذج [illegible] الأدب الأردى الذى يرجع تاريخه إلى [illegible] [illegible]اسع عشر و[illegible] القرن العشرين.